علي أدهم

بين الأدب والتاريخ



دراسة

أحمد حسين الطماوي

●● يتنـاول هذا الكتـاب علما من اعـلام الأدب ونقـده ، وشيخا من اشياخ التاريخ وفلسفته ، وواحداٍمن اصحـاب الأساليب الأسرة الصافية ، ويعرض لمنهجه فى كتابة تراجم بعض شداة الأدب ، وبناة الدول ، ويتناول آراءه المستجادة فى البطـولة والعظمـة ، ونظـراتـه فى الحيـاة والمجتمـع ، ويـوضـح دوره فى دعم المـوقف الثقـافى فى ضحى القـرن العشرين ، وتعريف القارىء العربى بالمدارس الاجنبية فى النقد والتاريخ ومذاهب السياسة والاجتماع وتقديـر الفن والجمال .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

على أدهم

بين الأدب والتاريخ

تأليف

أحمد حسين الطماوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠

مارس ١٩٨٩م

اخراج فنى : ماهر الشمسى

تصميم الغلاف : درية محمد على

« الرجل العظيم يجشم الانسانية مشقة فهمه »

هيجل

الاهـــــداء

الى ابنتى

عبلة ولبنى

مع أطيب المنى

أحمد حسين الطماوى

قالوا عن على أدهم

● عباس محمود العقاد :

« على أدهم رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف ، ورؤية العالم ، وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام فى أسرار التاريخ ما ليس يعرفه عندنا غير أفراد معدودين فاذا تناول قبيلا أو رجلا أو دولة نفذ الى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله فى مذاهب التعليل والتحليل » .

الدستور فى ٩ من يناير ١٩٣٩

● طه حسين :

« على أدهم واسع الثقافة عميقها رفيعها ، مع أنه لم يسلك اليها الطريق المعبدة التى تعود الناس أن يسلكوها وانما أخذ ثقافته بالقوة والعنف وافتتحها عنوة ان جاز هذا التعبير . فهو لم يتخرج فى جامعة مصرية أو أوربية ، وانما تخرج فى جامعة خير من الجامعات كلها ، فى غرفة من غرفات داره عكف فيها على الدرس والبحث والاستقصاء ، وتعمق حقائق الأدب والفلسفة والتاريخ فظفر من الثقافة الرفيعة الممتازة بما لم يظفر به كثير جدا من الذين تخرجوا فى الجامعات ، بل من الذين اشتغلوا فى الجامعات ليخرجوا فيها الطلاب » .

الكاتب المصرى يناير ١٩٤٨

● زكى نجيب محمود :

« كان صورة لعصره من حيث انه أولا : جاد فى كل ما كتبه ، مقالات كانت ام كتبا . ثانيا : انه تحرك فى مجالين جنبا الى جنب وهما عرض الثقافة العربية والاسلامية من جهة . ثم عرض جوانب من الثقافة الاوربية من جهة أخرى . وهو صميم ما كان يدور حوله النشاط الفكرى والادبى فى الجيل الماضى . ثالثا : كان له ذوق على كثير من النضج فى تقدير المنتجات الأدبية والفنية . رابعا : من أميز ما يميزه المتابعة لكل جديد فى مجالات الثقافة . ثم هو عف اللسان » .

الاخبار فى ١٤ من يناير ١٩٨١

● د . توفيق الطويل :

« كان هادىء الطبع بحيث لا يذكر عارفوه أنهم رأوه ثائرا أو غاضبا مرة من المرات ، وكان عف اللسان لا يتناول احدا بالسوء ويحرص على عدم تجريح أحد فى غيابه أو فى حضوره » .

الأخبار فى ١٤ من يناير ١٩٨١

● سيد قطب :

« ينظر للادب بعين الفيلسوف ، ويتذوق الفلسفة بحس الأدب ، ويتناول الشخصيات والحوادث بشعور مزيج من الفلسفة والأدب على السواء » .

« حين يكتب بحثا فى مقال تتجلى أفضل خصائصه من الدقة والعمق والوضوح ، والاحاطة بأطراف موضوعه ، وتجليتها للقارىء بحيث تعطيه الكفاية التى يستريح اليها فى حيز محدود ، وبحيث يشعر أن فى هذا الفصل غناء ، ما لم يكن من هواة المراجع المطولة فى الموضوع الذى يطالعه ، فهو كاتب مقالة مجيد بل هو فى الصف الأول عندنا من كتاب المقالة » .

« زوّدَ الثقافةَ المصريةَ العربيةَ الشرقيةَ بطائفةٍ من الأفكار والآراء والنظريات التى تمهد السبيلَ للخلق الأدبى والفنى العظيمين » .

كتب وشخصيات

● أنيس منصور :

« الاستاذ على أدهم من الجيل الذى كان يعمل ويفكر ولو لم يكن لذلك ثمن أو صدى عند أحد . ولم يهمه كثيرا أين تذهب كلماته من الناس . ولذلك قدم ما يعجبه هو .. ولم يمنعه (هذا) من أن يقرأ ويكتب ويرتاد طرقا ونظريات ، ويقدم

أشخاصا حتى اذا لم يكن هنـاك أحد يرى ويفهم ويقدر . وهـذه هى الرهبانيـة فى العلم والمبدأ الأول فى الريادة الفكرية » .

الأهرام فى ٢٢ يناير ١٩٨٢

● محمد خليفة التونسى :

« من أبرع كتاب فن التراجم فى أدبنا وأدب العـالم كله . وكنا نعرف خـلال آثـاره ما يستشف وراءها من قوى واستعدادات هى أكبر من هـذه الآثـار ، ولولا أن قلمه ملجم بورعه وحزمه لكانت أعماله أرفع وأكبر ، ثم أكثر وأشهر » .

مجلة الكتاب العربى عدد ديسمبر ١٩٦٤

● د . عبد العزيز الدسوقى :

« الميزة الكبرى لعلى أدهم – فى تصـورى – هى امتزاج وعيه التاريخى الدقيق بحسـه الأدبى العميق . ومن هـذين المصـدرين « الوعى التـاريخى » « والحس الأدبى » تشكل مزاجه الفكرى الخاص . وأصبح مؤرخا عظيما حول أحداث التاريخ ووقائعه وشخصياته الى مادة أدبية خصبة ملهمة مثيرة دون أن يجور على أحـداث التاريخ ووقائعه » .

مجلة الثقافة عدد أكتوبر ١٩٧٧

● وديع فلسطين :

« الذين يتتبعون ما ينشره من فصـول ومقالات فى مجـلات الأدب ، يروعهم من الأستاذ أدهم بحكم وقوفه على الفلسفات الغربيـة وتضلعه منها ، ملكة التفلسف ، وأحسبه لولا خلة التواضـع لخرج علينا بكتاب يطويه على مذهبه الفلسفى الخاص » .

المقتطف عدد ديسمبر ١٩٤٨

● رجاء النقاش :

« خدم الثقافة والادب فى الوطن العربى ستين عاما متصلة .. وكان مثالا للجد والاخلاص والعمق والأمانة فى كل ما كتبـه وترجمـه خلال حياته الثقافيه ، بالاضافة الى ما اتصف به من التواضـع والبعد عن الغرور والادعـاء طيلة حياته الأدبيـة والفـكرية » .

الدوحة عدد مارس ١٩٨٢

● د . محمد رجب البيومى :

« منذ اخذت أقرأ للأستاذ الكبير على أدهم مقالاته الرصينة ، وإنا أتذكر به العقاد فى كل فصل أقرأه ، واعقد موازنة صامتة فى نفسى بين ما قاله أدهم وما يمكن أن يقوله الأستاذ العقاد او اتجه الى معالجة ما عالجه أدهم من أفكار ، اذ وقر فى ذهنى أن أدهم أقرب الكاتبين فى العربية الى منحى العقاد العظيم وليس معنى ذلك أنه يحتذيه ، فللأستاذ أدهم شخصيته القوية الخصبة فى كل ما يكتب » .

الثقافة عدد يولية ١٩٧٩

● فؤاد كامل :

«كان على أدهم موسوعى الثقافة كالعقاد ولكنه لم تكن فيه وعورته . ذلك أن أسلوب على أدهم يمتاز بالسلاسة والسهولة . كان كالجدول العذب الرقراق ينساب بلا صخب أو ضجيج وكذلك كان طبعه وشخصيته » .

الاهرام فى ١٦ من يناير ١٩٨١

● جمال الدين الرمادى :

« واسع الثقافة ، ممتد الأفق ، تحمل ثقافته أصباغا متعددة والوانا متباينة .. أشبه بالأستاذ العقاد الذى تتنوع معالم تفكيره فيخوض فى مباحث شتى » .

مجلة الكتاب العربى يناير ١٩٦٥

● حبيب الزحلاوى :

« بلغ درجة متقدمة فى وظائف الحكومة بجده وكفايته بدون ما اعتماد على كبير أو وساطة وزير أو تزلف الى انسان .. لم تكونه جامعة بل كون مع الزمن نفسه ، ونظم مطالعاته وفق مزاجه وميله » .

شيوخ الأدب الحديث

كلمة الابتداء

يتناول هذا الكتاب عَلَماً من أعلام الأدب ونقده، وشيخاً من أشياخ التاريخ وفلسفته ، وواحداً من أصحاب الأساليب الآسرة الصافية ، ويعرض لمنهجه فى كتابة تراجم بعض شداة الأدب ، وهداة البشر ، وبناة الدول . وآرائه المستجادة فى البطولة والعظمة ، ونظراته فى الحياة والمجتمع . ويوضح دوره فى دعم الموقف الثقافى فى ضحى القرن العشرين ، وتعريف القارئ العربى بالمدارس الأجنبية فى النقد والتاريخ ، ومذاهب السياسة والاجتماع ، وتقدير الفن والجمال .

ذلكم هو على أدهم الذى انحدر من أصل تركى ، واستوعب الثقافة العربية واستوعبته ، وصار من أعيان الأتراك الذين تعربوا ، وذابوا فى الشخصية المصرية ومارسوا الكتابة والسياسة من أمثال : قاسم أمين وولى الدين يكن والتيموريين ويحيى حقى وغيرهم .

لم يترك لنا على أدهم سيرة ذاتية نرجع اليها عند الترجمة له مثل العقاد وطه حسين وأحمد أمين ، ولامذكرات يروى فيها ذكرياته ، وأخبار حياته مثل عبد الرحمن الرافعى ومحمد حسين هيكل ، ولا صورا شخصية تعكس بوضوح ملامح النفسية والبيئة الاجتماعية ، وظروف النشأة والتربية مثل ابراهيم عبد القادر المازنى ولا هو من كتاب أدب الاعتراف مثل عبد الرحمن شكوى وحافظ نجيب . ان شيئا من هذا لم يكن يشغله .

وانما شغلته دراسات تحكى رحلة عقل فى عوالم الثقافات ، تبهره المعارف ، وتطربه الحقائق ، وتستحثه ظواهر الكون الى التأمل والتصفح

واستغرقته أسفار تروى قصة نفس تواقة الى معرفة أسرار الحياة ، وكنه الوجود ، وماهية الجسد والروح ، وعلة شقاء الانسان ، والولع بدراسة الانماط النفسية ، والسلائق الانسانية ، وقدرات العقل ، وملكات الخيال ٠

فتاريخه العلمى هو تاريخ الانسان الذى يتطلع الى المعرفة وسناها ، ويبحث عن الحق الجلى ، ويصابح الجمال النقى ٠ أما تاريخه الشخصى لم يبسط فيه قول ، ولم يشغل به ذهن ، وهو من الأمور التى لا يجدى فيها اجتهاد لذلك فان مصادرى فى تسجيل سيرته هى جلساتى الطويلة معه ٠ ولعل أول ترجمة له تشير الى ولادته ونشأته كانت بقلم كاتب هذه السطور فى مجلة الطالبة عام ١٩٦٦ ٠ ثم ترجم له نقولا يوسف فى كتابه « أعلام من الاسكندرية الصادر عام ١٩٦٩ ، وأغلب ظنى أن المعلومات الواردة عن أدهم فى كتاب نقولا يوسف مصدرها مجلة « الطالبة » سالفة الذكر لأنه لم يزد عليها ، علاوة على أن صلة نقولا بأدهم كانت واهية ومتأخرة ٠ وفى عام ١٩٧٥ نشرت الدكتورة نعمات فؤاد سيرة له فى مجلة الاذاعة ، وكانت الكاتبة على صلة بعلى أدهم ، ولكن ترجمتها لم تسلم من الخطأ على نحو ما سنشير ٠

وانى اعتمد فى تدوين سيرته على ما كنت أقيده عنه فى دفترى وأنا أجلس اليه، وأتلقى منه على مدى ستة عشر عاما ٠ كما أفدت من اشارته الى عبد الرحمن شكرى أحد أساتذته ٠

وقد قسمت دراستى هذه الى ثلاثة أقسام :

● **القسم الأول :**

يتناول حياته وانطباعاتى عنه ، وقد اتبعت فيها التسلسل الزمنى ، وأوضحت المؤثرات الأولى فى ثقافته ، والأساتذة الذين وجهوا تفكيره فى التاريخ والأدب والفلسفة ٠ وان كان الكتاب كله يخضع لمنهج « الصورة » فى كتابة التراجم باعتبار سيرته احدى الصور ٠

● **القسم الثانى :**

يعرض لآثاره الأدبية والنقدية ، وتأثير الفلسفة وفلسفة التاريخ فى العملية النقـــدية عنده ، ووقفت عند النقاد الروس الذين تناولهم أدهم بالدراسة فى مطلع حياته الأدبية ولعله كان أول من تحدث عن النقد والنقاد الروسيين ٠ كما أظهرت خصائص أسلوبه وتعبيره ٠

● **القسم الثالث :**

يدور حول كتاباته التاريخية وفلســـفة التاريخ ، وتطور التدوين التاريخى والتراجم والمذاهب السياسية ٠

ثم الحقت بالكتاب نشرة ببليوجرافية تضمنت أسماء مؤلفاته بعد تصنيفها والدراسات التى قدمت عنه ، وضمتها كتب ودوريات مع ذكر تواريخها ·

ولا أنكر أن رسالتى هذه عن على ادهم أملاها التقدير والاعجاب ، ووشحها الوفاء والوداد ، ولكن ذلك لم يحل دون تسجيل آرائى الخاصة ، وانتقاداتى لبعض كتاباته · ولم يكن هذا بقصد اظهار الحياد ، ولكن بغرض ابراز الحقيقة كما تبدو لى ·

وقد عرضت فى هذا الكتاب قدرا كبيرا من أفكاره وناقشتها دون أن يكون بيننا وسيط فلم استشهد بأقوال الكتاب فيه لأدلل على صوابه أو غلطه ، وانما دار الكلام بينى وبينه على نحو ما كان يدور بيننا فى حياته ·

أما أقوال الآخرين فيه فقد اقتطفت منها ما يمثلها ، وما يدل على صاحبى فيها ووضعتها فى ناحية من الكتاب ليفيد منها من يروم الفائدة ·

وقد كنت استرجع ـ أثناء الكتابة ـ ذكريات قديمة معه ، وما أكثرها وأنضرها ، فسقيا لتلك الأيام البهيجة · وحسبى من كتابى أن يكون مجددا لذكراه وباعثا لغيرى على استيفاء ما قصرت فيه ·

والله المستعان

القاهرة فى الثالث من مارس ١٩٨٩

أحمد حسين الطماوى

القسم الأول

ترجمته

- ولادته
- نشــأته
- ثقافته وكتاباته
- طباعه ومزاجه
- ذكرياتي معه
- وفـــاته

ترجمته

ولادته :

كانت الدولة العلية فى القرن التاسع عشر في حالة حرب دائمة مع الروســـيا ودول البلقان وبعض دول غرب أوروبا فيما عرف « بالمسألة الشرقية » لسلخ ممتلكات الدولة فى أوروبا ، علاوة على حروبها مع محمد على فى بلاد الشام وجنوب آسيا الصغرى • وهناك واقعات حربية كثيرة فى القرم ونوارين والأفلاخ والبغدان والجبل الأسود وبلافنا ترتب عليها توقيع معاهدات شهيرة مثل معاهدة « أدرنة » و « خونكار اسكله سى » و « كوتاهية » و « باريس » و « سان استيفانوس » وغيرها •

وكان من نتائج الأوضاع السياسية والعسكرية المتردية فى الدولة العثمانية ، واشتداد شوكة أوروبا ضدها ، وحالات التمرد والعصيان المتوالية فى دول البلقان ، تنازل دولة بنى عثمان عن كثير من أملاكها •

وقد تبع ذلك اضطراب شديد ، وخلل كبير فى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، كما ساءت العلائق بين الحكام والولاة من جهة ومواطنى الدولة من جهة أخرى نتيجة العسف والظلم وكثرة الجواسيس • هذا الى جانب انغلاق الدولة على نفسها ، وعدم تقدمها فى مختلف المجالات بدرجة كافية •

وهذه الأسباب كانت دافعة لكثير من الأتراك لهجر موطنهم الى بلاد أكثر أمنا واستقرارا ، وأوفر عيشا ورخاء ، وأقل حروبا واضطرابا •• فمنهم من رحل الى مصر ومنهم من توجه الى أوروبا •

وكان من بين الأتراك النازحين الى مصر فى القرن التاسع عشـر جد كاتبنا « على أدهم » • الذى ترك « كوتاهية » وقصد الاسكندرية مع زوجه وولديه فاستوطنها وراح يكيف نفســـه مع أحوالها • وكان ابنه الأصغر « محمد جمعه » قد تلقى قدرا من التعليم مكنه من الالتحاق بوظيفة فى مصلحة الجمارك بالاسكندرية •

قطن « محمد جمعه » حى رأس التين ، واســـتطاع أن يفوز بثقة

رؤسائه وبمحبة زملائه لكياسة ظاهرة عليه · وسرعان ما تعرف بعائلة مصرية تنحدر من قبائل « أولاد على » واقترن باحدى بناتها ·

وبالرغم من أن « محمد جمعه » لم يعد له صلة بموطنه وأهله فى كوتاهية الا أنه كان يتابع بحس قومى وشعور وطنى ما جرى وما يجرى من نزاع حول ممتلكات الدولة العثمانية فى شرق أوروبا · فتابع معارك الجيش العثمانى مع الروسيا وبخاصة موقعة « بلافنا » الشهيرة ودور أدهم باشا فيها · فقد صمد القائد الشجاع مع عثمان الغازى صمودا كان موضع تقدير الأعداء قبل الأصدقاء · وكان لأدهم باشا دور مشرف من قبل فى استرداد الجبل الأسود ببضع مئات من الجند فى حين ارتد عنه درويش باشا ومعه عشرون ألفا(١) ثم كانت الحرب اليونانية العثمانية التى انتصر فيها أدهم باشا انتصارات ساحقة أخجلت اليونانيين ، وطامنت من غلوائهم · وقد أشادت الصحف الأوروبية والشرقية ببسالة المشير أدهم باشا واصابة رأيه · وفى القاهرة تألفت جمعية لجمع مال يصنع منه تذكار يقدم للبطل العثمانى المشير أدهم باشا(٢) ·

كان « محمد جمعه » يتابع كل هذا بفخر وارتياح · ومن حسن الطالع أن مجلة الهلال صدرت فى أول يونية عام ١٨٩٧ مزينة بصورة للمشير أدهم باشا على غلافها ، وفى الداخل ترجمة له · فلما أنجب « جمعه » ولدا من زوجه المصرية فى ١٩ من يونية عام ١٨٩٧ أطلق عليه « على أدهم » اعجابا وتيمنا بالبطل العثمانى · « فعلى أدهم » اسمه ، و « محمد جمعه » اسم أبيه ·

نشـــــأته :

أمضى على أدهم طفولته فى حى رأس التين قريبا من البحر المتوسط ، وفى سنيه الأولى التحق بعدة مدارس منها مدرسة المنياوى وهى مدرسة أهلية صغيرة ، ثم دخل مدرسة الحجارى وهى بمنزلة اعداد للمدرسـة الابتدائية ، ولم يمض عليه وقت طويل بها فانتقل الى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلاميةوهى مدرسة أهليةاشترك فى تأسيسها الشيخ محمدعبده، وبعد عامين تركها ليلتحق بمدرسة رأس التين الابتدائية ونال شهادتها عام ١٩١١ · ثم قيد اسمه فى القسم الثانوى بمدرسـة رأس التين ، وكان يدرس له الجبر محمود فهمى النقراشى الزعيم السعدى ورئيس مجلس الوزراء فيما بعد · ويتلقى التاريخ والجعرافيا على يد الشاعر المجدد عبد الرحمن شكرى فى العام الدراسى ١٩١٣/١٩١٤ · ويبدو أن حاسته الأدبية بدأت تتفتح فى هذه السن · فقد كان « شكرى » يثير شوق طلابه الى الشعر والفن ، ويقول على أدهم عن تلك الفترة وعن أستاذه شكرى :

---

(١) الهلال عدد أول يونيه ١٨٩٧ ·

(٢) الهلال عدد ١٥ مايو ١٨٩٧ ·

« وبعد انتهائه من الدرس وهمه بالانصراف ، كنا نتجمع حوله ، ونوجه اليه الأسئلة عن الأدب ، وأقدار الكتاب والشعراء ومذاهبهم . وعن الآثار الأدبية القديمة والحديثة التى يحسن الاطلاع عليها . ولم يكن يضن علينا بالرأى الصائب ، والتوجيه النافع »(٣) وتعلم من أستاذه أيضا أن درس الأدب ليس هينا وأنه لابد من مداومة الاطلاع الى جانب توفر الملكة الأدبية . وهذا درس مفيد ، وتوجيه سديد من شكرى أفاد منه على أدهم فى مستقبل أيامه .

وفى عام ١٩١٥ ينتقل على أدهم الى المدرسة الخديوية الثانوية فى القاهرة بعد وفاة أبيه ، ونتيجة لظروف عائلية ويقيم مع خاله « أحمد فوزى » . وقد كان أحمد فوزى من المثقفين المصريين ، وكان له دوره فى تنشئة على أدهم وتثقيفه حيث دفعه الى قراءة بعض الأعمال القصصية والروائية الانجليزية .

وفى المدرسة الخديوية يتعرف على الطالب عبد الرحمن صدقى (الشاعر الأديب ومدير الاوبرا فيما بعد) . وقد حدثنى عبد الرحمن صدقى عن تلك الأيام فقال . لقد كتبت فى مجلة المدرسة الخديوية مقالا عن الموت ، وكتب أدهم مقالا عن أبى العلاء المعرى » وأتم صاحب الترجمة تعليمه الثانوى وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩١٦ . وكثيرا ما كان يشير فى جلساته الى سنوات الدراسة الأولى ويذكرها بالرضا .

وخلال وجوده فى القاهرة تعرف الى الأستاذ المازنى والأستاذ العقاد عن طريق عبد الرحمن صدقى . ومن ثم توثقت صلته بممثلى المدرسة الحديثة فى الشعر والنقد شكرى والمازنى والعقاد .

ثقافته وكتاباته :

وكانت تظهر فى ذلك الوقت عدة مجلات ثقافية أشهرها المقتطف والهلال . أما مجلة المقتطف ـ كما يعرف القارىء ـ فقد كان اهتمامها الأكبر بالمباحث العلمية، اذ تنقل أخبار التقدم العلمي، والمكتشفات الجديدة، ووجه أهمية هذه المجلة أنها ظهرت فى فترة نهضة صناعية علمية واقتصادية وفكرية فى أوروبا ، فوصلت بين العقل الشرقى والعقل الأوروبى .

أما مجلة الهلال فقد أنشأها جورجى زيدان عام ١٨٩٢ وكانت شهرية فترة ونصف شهرية فترة أخرى ويغلب عليها التاريخ والثقافة العامة ثم الأدب . وقد كان « على أدهم » « الصبى » فى ذلك الوقت لا يستطيع أن يقرأ المقتطف ولا يستفيد منه . لأن المقتطف يتطلب استعدادا ضخما ، وزادا علميا وفيرا ؛ أما الهلال فيسهل فهمه على الكبار والصغار ، ويفيد منه ذوو الثقافة الرفيعة والمحدودة ، وثمة أسباب أخرى أتاحت « للصبى »

---

(٣) مجلة « المجلة » عدد فبراير ١٩٥٩ مقال على أدهم عن عبد الرحمن شكرى.

قراءة الهلال من بينها أن والده كان مشتركا فيها مما يسر وصولها اليه ، وكانت الهلال تتناول موضوعات تشغل الأذهان ، وتوضح الحقائق بالصور، والمواقع بالخرائط مما يستلفت نظر القارىء ، ويستوقفه فيتأمل ويتطلع الى المعرفة ، ومواصلة الاطلاع ٠

والى جانب ذلك كانت مجلة الهلال تحتجب شهرين كل عام ، وكان صاحبها يعوض المشـــتركين فى مجلته بكتاب من كتبه المؤلفـة عن هذين الشهرين ، مثل « تاريخ العرب قبل الاسلام » أو « تاريخ التمدن الاسلامى » أو بعض الروايات التاريخية التى وضعها جرجى زيدان ٠ وكان صاحبنا يعكف على هذه الكتب لقراءتها فى الوقت الذى يتوقف فيه صدور المجلة ٠

وذات يوم كلف المستر « فيشر » تلاميذه بعمل بحث مقارن بين محمد على ونابليون ، وأعد أدهم عدته فقرأ رواية مترجمة عن محمد على وكتاب « الثورة الفرنسية » الذى ترجمه فرح أنطون ، عدا ما كان يكتبه جرجى زيدان فى باب « أشهر الحوادث وأعظم الرجال » فاستطاع بعد كل هذه القراءات أن يكتب بحثا جيدا ـ بالنسبة لعمره ـ فاق به أقرانه ، وبين فى هذه الموازنة أوجه الشبه بين الرجلين فكلاهما كان جنديا صغيرا ، بعيد الأمانى واسع الطموح ، وكانا عصاميين استطاع كل منهما أن يكون دولة كبيرة بعيدة الحدود ، عظيمة النفوذ ، وهى التفاتات جيدة من فتى صغير ذكى ٠

هذه هى أول مرة يكتب فيها تاريخا ويعمل عقله فى التفكير لقول شىء بعد أن عاشر الأبطال وتفهم بيئاتهم ، وقدر أعمالهم ، وتعرف على خصائص نفوسهم ، وعرف كيف يبحث عن مصادر لدرسهم ٠ وهذه هى بذور التفكير العلمى التاريخى التى تجلت فى أعماله الكبيرة فيما بعد ، وتناولت تراجم المشهورين فى الشرق والغرب ٠

ونستطيع أن نقول ان جرجى زيدان كان أستاذه فى ميدان الدراسات التاريخية فى تلك الفترة ، فقد وجه تفكيره الى قراءة التاريخ وتحليله ، ونبهه الى كتابة التراجم وأهميتها من خلال الباب الذى كان يدبجه بانتظام فى مجلة الهلال « أشهر الحوادث وأعظم الرجال » ٠ ولاشك فى أن جرجى زيدان وجه الثقافة العربية الحديثة الى كتابة التاريخ الاسلامى ٠ وكان فى طليعة الكتاب الذين اطلعوا على كتب المستشرقين وأفادوا منها ، واستندوا اليها ٠

واذا كان جرجى زيدان قد وجهه الى ميدان التاريخ وتحـــليله ، فان استاذا آخر نهض به فى مجال الأدب والنقد ذلك هو الشاعر عبدالرحمن شكرى ٠ فلم تنقطع الصلات بين أدهم وشكرى بانتقاله الى القاهرة وتلقيه العلم فى المدرسة الخديوية ٠ فبعد حصـــوله على البكالوريا عاد الى الاسكندرية والتقى كثيرا بشكرى يقول : « واتيحت لى بعد عودتى الى الاسكندرية فرص كثيرة للاجتماع بالاستاذ شكرى ٠ وكان الاستاذ شكرى فى مجالسه الخاصة محدثا لبقا ، شائق الحديث ، واسع المعرفة ٠ نافذ النظرات ، وكان يزيد حديثه متعة انه كان دائم الاطلاع ، سريع القراءة ،

وهو مع سرعة قراءته قوى الاستيعاب ، حسن الهضم لما يقرأ ، وكان له على جميع ما يقرأ تعليقات رائعة ، وتعقيبات نافعــــة ، واذا اطمأن الى جليسه ، واستراح له مضى ينثر ذخائر معرفته ، ونفائس علمه ، فى تواضع محبب ، وسخاء جميل ، وان أنس من الأشياء فاننى لا أنسى تلك المجالس الرائقة التى كان ينظم شــــملنا فيها الود الصــــادق ، والتقدير المتسامى فوق الأغراض الدنيوية ، والمآرب الأرضية »(٤) ٠

ومما لاشك فيه أن فتانا الذى لم يبلغ العشرين من عمره أفاد من أحاديث شكرى ، وذخائر معارفه ، وكلماته الراشدة ، وذكره لأســـماء الكتب الجيدة ، والمؤلفين الممتازين ، والشعراء الملهمين ، مما فتح له بابا واسعا الى دنيا الأدب ونقده ٠

لم يلتحق أدهم بالجامعة المصرية أو الجامعات الأجنبية بعد حصوله على البكالوريا ، ولكنه حرص على تثقيف نفسه فقرأ الروايات الأجنبية المترجمة مثل روكامبول ، ونيقولا كارتر ، ثم عرج على الأدب العـــربى المعاصر ممثلا فى « ليالى سطيح » لحافظ ابراهيم ، وكتابات العقاد والمازنى وشكرى ومحمد السباعى فى مجلة « البيان » وغير هذا من ثمرات الأدب الحديث ٠

وبدأ يتعرف على شوبنهور من خلال رسالة « ملقى السبيل » التى طبعها وعلق عليها حسن حسنى عبد الوهاب ٠ وفى أول هذه الرسالة موازنة بين شوبنهور وأبى العلاء ، فلما قرأها تركت فى نفسه أثرا ، وجعلته ينقب عن آثار الرجلين ٠ وفيما بعد كتب أدهم فصولا كثيرة عن شوبنهور والمعرى ، وفى كتابه « بين الفلسفة والأدب » موازنة بين حكيم المعرة وفيلسوف الالمان تستحق الاهتمام وتدل على كثرة الاطلاع والتقصى ولعل اهتمامه بأبى العلاء وشوبنهور فى ذلك الوقت المبكر من عمره يعكس اهتمامه بالجانب التشاؤمى فى الحياة الذى ظهر فى كثير من دراساته وبخاصة كتابه « لماذا يشقى الانسان » وكتابه «نظرات فى الحياة والمجتمع» ومقالات ونظرات أخرى فى عديد من كتاباته ٠

على أن أثر رسالة « ملقى السبيل » ليس فى توجيهها له فى درس شوبنهور والمعرى فقط ، وانما فى تنبيهه وتوجيهه لدراسة الفلسفة بشكل عام ومنظم ، فان الذى يدرس شوبنهور لابد أن يعرف من يشابهونه أو يخالفونه فى مذهبه وعلى هذا راح يدرس هيجل وشليجل وفخته ونيتشه وليوباردى وغيرهم من الفلاسفة ٠ وكتبه مليئة بالاشارات الى فكر هؤلاء ، والنظرات المستوعبة لآثارهم ٠ وعلى هذا فانه يمكن اعتبار حسن حسنى عبدالوهاب من المؤثرين فى على أدهم ٠

وقد أنكب صاحب الترجمة على كتب الفلسفة فقرأ منها ماشاء ، وعرض كثيرا من جواهرها فى سباق أحاديثه ، وعلق عليها بمايفيد قارئه منها ، ومايرشيده اليها ٠ ولم تكن قراءاته الفلسفية خافية على معاصريه،

---

(٤) المصدر السابق ٠

بل لم يكن شغفه الشديد بها وتشدقه فى المجالس بنظرياتها من الأمور العادية ، فقد كتب العقاد فى يوميات الأخبار أن واحدا من تلاميذ شكر « خطر له أن يضع مسرحية فى قالب حلقة ذكر فلسفية يشترك فيها زملاؤه الأدباء والشعراء ، ويهتف كل منهم فى ذكره بالاسم الذى يسبح به ويغنى على ليلاه ٠

فمنهم من يهتف : « بيرون ٠٠ بيرون »

ومنهم من يهتف « شيلر ٠٠ شيلر »

ومنهم من يهتف « أنا ٠٠ أنا ٠٠ أنا ٠٠ أنا » ولا يزيد عليها ٠

أما الأستاذ أدهم ـ وهو أحد الذكيرة المتحمسـين ـ فهتافه على الدوام « هيجل ٠٠ هيجل ٠٠ كارليل ٠٠ كارليل » ثم يعيدها عكسا وطردا فى حلقة الذكر ، وفى غير الحلقة على انفراد بعد انفضـاص الذكيرة الهاتفين »(٥) وهذا الكلام ان دل على شىء فانما يدل على ولع أدهم بالفلسفة وتقدمه فيها ٠

هكذا كانت بدايات صاحب الترجمة مع التاريخ وفلسفته ، والأدب ونقده ، والفلسفة والفلاسفة ٠ وهى الميادين الرئيسة فى فكر على أدهم ٠

وقد كانت كل هذه المعارف فى شتى فروع الفكر تتلاءم فى نفسه ويمد بعضها بعضا ، حتى اذا حان الحين خرجت متميزة بطابعه وعليها سمات شخصيته والمعيته ٠

وفى عام ١٩١٨ عمل فى مصلحة الجمارك فى الاسكندرية ، وكان أبوه قد مات قبل عدة سنين من توظفه ، وظل فترة فى الثغر السكندرى يقرأ ويلتقى بالأدباء الشبان من أمثال زكريا جزارين وحسن فهمى ومحمد مفيد الشوباشى وغيرهم ٠ وفى عام ١٩١٩ انتقل الى جمرك القاهرة وظل يعمل فيه حتى نهاية ١٩٢٣ ٠

ويعتبر انتقاله الى القاهرة فاتحة جديدة فى حياته ، وكان أهم ما يشغل باله فى تلك الفترة توسيع نطاق قراءاته ٠ فأقبل على أمهات الكتب التاريخية والأدبية والفلسفية والنفسية والاجتماعية يعينه فى هذا اتقانه اللغة الانجليزية وآدابها ، والمامه باللغة الفرنسية الماما يتيح له القراءة فيها بين الحين والآخر فقرأ مؤلفات كارليل و هـ ٠ ك ويلز وميشيليه وماكولى وصموئيل الكسندر وغيرهم من أعلام الفكر الانجليزى ، وطالع ما تيسر له من أعمال شـوبنهور وهيجل وكانت وشيلر وجيته فى الفكر الألمانى المترجم الى الانجليزية ، ودرس الأدب الروسى دراسة مكنته من عيونه ، وأمعن النظر فى دواوين العرب الأدبية والتاريخية فنضج وعيه من خلال هذه القراءات ، وأخذ يدرب قلمه على الكتابة ، وظل يرتقى من

---

(٥) جريدة الأخبار فى ٩ من يناير ١٩٥٤ والجزء الثانى من « اليوميات » للعقـاد ص ٩٠ ٠

الأدنى الى الأسمى خاضعا لمنطق التطور الطبيعى ، ولم يستغرق نضجه الفكرى وقتا طويلا فراح ينشر مقالاته فى مجلة « البيان » لصاحبها الشيخ عبد الرحمن البوقوقى عن ترجنييف ومترلنك وأناتول فرانس وحديقة أبيقور وترجم رسالتين بعث بهما متزينى لمدام كارليل(٦) وكتب مقالا عن سعد زغلول يمتدح فيه بطولته وشجاعته ووطنيته فى الوقت الذى كان ثروت باشا يكظم النفوس . وفى عام ١٩٢٢ ينشر سلسلة مقالات عن الأدب الروسى فى مجلة « الرجاء » التى كانت تصدرها ليلى عبد الحميد ويساعدها فى التحرير كامل كيلانى وقد تناول فى هذه المقالات فن الجمال فى روسيا .

وهكذا خرج من محيط الوظيفة الى دنيا جديدة ، وصارت له آراء معلنة ، وأفكار مدونة ، وتوالت بعد ذلك أعماله ودراساته ، فصدر له أكثر من ثلاثين كتابا فى مختلف فروع المعرفة ، كأن أولها كتاب صقر قريش الذى صدر عام ١٩٣٨ ، وآخرها كتاب « تاريخ التاريخ » الصادر عام ١٩٧٧ . وعدا ذلك له مئات المقالات نشرها فى « المقتطف » والهلال والسياسة والرابطة الاسلامية ومجلة العربى الكويتية ، ومجلة الكتاب والعربى ، والفكر المعاصر ، وقافلة الزيت ، والثقافة (أحمد أمين) والثقافة(٧) وتراث الانسانية ومجلة المجلة وغيرها ، وعلى أدهم من أكبر كتاب المقالة فى العصر الحديث وقد جمع بعض مقالاته فى عدة كتب منها « نظرات فى الحياة والمجتمع » و « لماذا يشقى الانسان » .. وكتاب « شخصيات تاريخية » .. وغيرها .

وكان على أدهم أول من ترجم المحاورات الفلسفية ، فترجم محاورات « ليوباردى » ورينان ثم محاورات « روضات الفردوس » من تأليف سلفادور دى مادارياجا .

ويعد كتاب « محاورات رينان » الذى ترجم فى عشرينيات هذا القرن من أسبق الكتب الفلسفية المترجمة ، وقد لفت أنظار كثيرين فيما بعد الى ترجمة الكتب الفلسفية .

ولعلى أدهم عدة كتب مترجمة منها المجموعات القصصية « فيراتا » « الخطايا السبع » « صديق الشدة » بالاضافة الى كتاب عن « غاريبلدى » و « مستقبل روسيا » . ونظرا لتمكنه من اللغة التى يترجم منها واللغة التى يترجم اليها جاءت مترجماته دقيقة ، واضحة الأسلوب . وقد وصف الأستاذ العقاد ترجمة أدهم لكتاب « مستقبل روسيا » بقوله : « انه استطاع

---

(٦) ذكرت د. نعمات فؤاد أن الرسالتين تبودلتا بين متزينى وزوجة كارليل والصحيح انهما من متزينى اليها . انظر مجلة الاذاعة فى ١٩٧٥/١٢/٦ . وهما أول ما نشره فى مجلة البيان عام ١٩١٩ .

(٧) الثقافة التى ترأس تحريرها د. عبد العزيز الدسوقى .

أن يجعل من هذا البحث السياسى قطعة أدبية ترضى ذوق الأديب كما ترضى فكر الباحث المنقب عن تاريخ العالم فى عصره الحديث »(٨) .

نعود مرة أخرى لسيرته لاستيفائها وتذكر أنه ترك مصلحة الجمارك فى القاهرة عام ١٩٢٤ وانتقل الى وزارة المعارف فعمل كاتبا ثم رئيسا للحسابات ثم مديرا لمكتب وكيل الوزارة . ثم مديرا لمكتب الوزير (طه حسين) وأحيل الى المعاش سنة ١٩٥٧ .

وقبل احالته الى المعاش وبعدها أشرف على أدهم مع غيره على كثير من السلاسل الثقافية مثل سلسلة « الألف كتاب » . وقد انتدب الى مجلس قيادة الثورة ليشرف على سلسلة « اخترنا لك » وله فيها كتاب « حقيقة الشيوعية » و « الهند والغرب » ، وكان من بين المشرفين على سلسلة « تراث الانسانية » وله فيها ما يقرب من عشرين دراسة كبيرة عن أمهات الكتب العربية والأجنبية التى أثرت فى الثقافة العالمية ، وأشرف فترة من الزمن على سلسلة « أعلام العرب » . وتولى رئاسة تحرير مجلة الكتاب العربى .

وقد قام بمراجعة عشرات الكتب المترجمة فى مختلف الموضوعات ، وكان يرفض الترجمة التى لا تلتزم بالنص ، ولا يوقع على صحة العمل المترجم الا بعد قراءته قراءة دقيقة . وذات ليلة زرته فى بيته ووجدته يمسك بورقة فى يده ومعه أحد المترجمين ، وراح يصحح له أخطاءه بصوت خافت حتى لا أسمع مايقول . ولكنى أدركت الأمر . وبعد انصراف المترجم قال لى : ان المترجمين يخطئون وواجبى أن أصوب الخطأ .

ولم يكافأ على أدهم على جهوده الفكرية والثقافية بما يجب ، وكل ما حصل عليه من جوائز فى حياته : كان جائزة مالية ضئيلة من مجلة سركيس فى مطالع حياته الأدبية . وفى عام ١٩٢٣ أعلن عن مسابقة فى كتابة ترجمة عن أحد موضوعين « النسر » نابليون ، و « الصقر » عبد الرحمن الداخل ، وقد اختار هو الصقر ، وفاز فى المسابقة . وفى عام ١٩٧٧ منحه الرئيس أنور السادات وساما .

طباعه ومزاجه :

وعلى أدهم ليس من صفاته العنف فى نقد الآراء ، ولا يميل بطبعه الى المناقشات الحامية ، والمجادلات المحتدمة ، والعراك المرير ، وكثيرا ما ينتقد اراء الآخرين دون اشارة الى أسمائهم ، وحسبه أن يعرض رأيه ويوضحه ، ويطرح فكرته ويعززها بالأدلة ، ويرسل كلمته فى هدوء وربما يكون قد تأثر فى هذا بامرسن الذى عارض كتاب الابطال لكارليل بكتابه « ممثلو الانسانية » دون أن يشير اليه . أو ربما يكون قد تسربت الى نفسه كلمات هيجل التى عبر بها عن اعجابه بأسلوب البيثاجوريين فى

---

(٨) مقدمة كتاب « مستقبل روسيا » فى سلسلة الناقوس .

التربية اذ قال : « ونحن بتحرى الصمت والاحتفاظ بأنفسنا لأنفسنا لانزداد فقرا فى الروح . بل على نقيض ذلك نكتسب القدرة على فهم الأشياء كما هى فى الواقع وندرك أن الآراء الذاتية والاعتراضات ليست بذات قيمة »(٩) .

وعدم دخول أدهم معارك الأدب والعلم لا ينم على ضعف فى الارادة، ولا قلة فى التحصيل والمعارف ، ولكنه من النوع الذى يرى الخطأ فيتجنبه، ويقول كلمته الصائبة أو التى يعتقد أنها صائبة وحسبه هذا . واذا كانت له ملاحظات على قول منشور ، أو رأى مكتوب فانه يلفت نظر صاحبه فى تؤدة وأناة ، وبكلمات رقيقةلا يدرك معها سامعها المخطىء أى تجريح أو اساءة . وقد حدث أن العقاد كتب فى يوميات الأخبار عام ١٩٦٢ أن الأديبين الألمانيين « هينى » و « لسنج » من أصل يهودى ، فذهب أدهم اليه ، وبعد انتهاء ندوته ، وذهاب تلاميذه نبهه الى أن لسنج ليس من أصل يهودى ، ولكنه كان يعطف فقط على اليهود . وقد راجع العقاد معلوماته ، وعندما استوثق من صحة ملاحظة على أدهم كتب فى الأخبار بتاريخ ١٩٦٢/٩/١٢ يشكر صديقه على تنبيهه . وهذا المثل يرينا كيف كان صاحبنا رفيقا كل همه جلاء الحقيقة وتصويب الخطأ .

ويربط أدهم بين الفكر والمزاج فيقول : « .. واذا صح أن رأينا فى الحق والخير والجمال متوقف على ما ركب فى طبائعنا وغرس فى نفوسنا، فان هذا من شأنه أن يميل بنا الى التسامح واحتمال من يخالفنا فى الرأى، لأنه الى مدى بعيد غير مسئول عما تورط فيه مما هو خطأ فى نظرنا » . ومعنى هذا أن تسامح على أدهم وعدم تخطئة آراء غيره ، وعزوفه عن اللوم مستمدة من رؤية كونها لنفسه قوامها أن فكر الانسان مرتبط بطبعه ومزاجه ، وليس فى مقدوره أن يغير رأيه لأنه لا دخل له فى تكوين طباعه .

وعلى أدهم يحاول أن يكون معتدل المزاج ، متوازنا فى نظره الى الحياة وتقديره لقسوتها ولينها ، وسائر متناقضاتها حتى لا يهتز يقينه أمام أحداثها القاصفة . ومع ذلك يبدو لنا أنه متشائم متطير حزين . ورغم تهجمه على المتشائمين فى بعض كتاباته الا اننا نجده يقول : « ان التفاؤل الخالص لا يخلو من السذاجة والغفلة والبله ، وهو فى بعض الأحيان ينم على الأنانية والبهيمية وكثافة الورح ، والتبرم بالحياة قد يكون من حوافز الرقى والتقدم والاصلاح » .

وفى موضع آخر نراه يصف الحياة بقوله : « ومعركة تنازع البقاء القائمة فى العصر الحاضر تكشف لنا عما تنطوى عليه الحياة من قسوة رهيبة ، وفظاعات منكرة ، وتتمخض عن الكثير من المآسى المروعة التى تلقى ظلالا ضخمة على اليقين والايمان ، ولا مفر للانسان من أن يتساءل : كيف ينشأ الخير ، ويتحقق الأمل فى عالم غاص بالكراهة والأحقاد الفائرة والشرور والآثام والعسف والارهاق ؟ »

---

(٩) تراث الانسانية ـ المجلد الخامس .

ولعل مزاجه جعله يدرك أوجه الطيرة فى رسالة بعث بها أحمد بن فارس لبديع الزمان ، وفى شعر ابن عبدون والرندى ، وهناك فصـــول بأكملها دبجها فى أبى العلاء وشوبنهور وهما من أكبر المتشائمين فى الحياة وتدل كتاباته عنهما على اعجاب شديد بهما • وفى كتابه « لماذا يشقى الانسان » فصل بعنوان « ألوان من التشاؤم التاريخى » وفى كتابه « ألوان من أدب الغرب » فصل عن « تشاؤم ليوباردى » وغير ذلك •

ويبدو أن تطير أدهم مرده الى طبيعته ، والحياة فيها ما يقوى هذا النزوع ، وشرور الناس لا تقف عند حد • كما أن قراءاته لتاريخ الحروب تدعم تبرمه بالحياة ، فهاهو الانسان منذ أقدم العصور الى اليوم يعد العدة ، وينظم الجيوش ويسخر كل امكانات الحياة لا فناء أخيه الانسان وهدم حضارته • وعلى حد قوله « أما التشاؤم فانه ينظر الى الدنيا كما هى » •

ولكن كتابات على أدهم لا ينطفىء فيها شعاع الأمل ، وبريق الحياة ، والتماع السرور فى العين ، وتشيد بالعمل والاصـــلاح ، ولا تخلو من الطرافة ، واشراق النفس بالتفاؤل ، وتدعو الى التضامن والتكامل •

وهو وان كان يجد صعوبة فى التسليم بكل مافى الحياة ، فانه لاينكرها الانكار الكامل ، ولا يتمرد عليها فى شتى اشـــكالها • وقد تنتابه حيرة شديدة ويغشاه شك وارتياب وقنوط مردها الى غموض الكون ، وجهل الانسان بتفسير ظاهرات الوجود وعدم معرفة نظامه • وهو عندما يقول « ان الألم والشر لابد منهما ولا محيص عنهما »(١٠) • يعبر عن الاستسلام للقضاء لأنه ليس فى قدرة المرء دفع هجمات الحياة ، واتقاء شرورها •

ذكرياتى معه :

رأيت الأستاذ أدهم أول مرة فى صالون العقاد عام ١٩٦٢ ، وتوثقت صلتى به بعد ذلك عندما كان يحضر الندوة التى كان يعقدها الدكتور عبد الفتاح الديدى فى منزله بعيد وفاة العقاد ، وقد زرته عدة مرات فى مكتبه بمجلة الكتاب العربى التى كان رئيساً لتحريرها ، ولما أخبرنى انه يجلس فى كازينو تريومف صباح كل جمعة مع صحبه رُحْتُ أتردد عليه • وكانت هذه الندوة الثقافية تضـــم عدا علي أدهم • الدكتور صـــبرى الســـربونى ، والدكتور عثمان أمين ، والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، والأستاذ عبد المجيد نافع ، والشاعر عبد الرحمن صدقى ، والمترجم عمر عبد العزيز أمين وغيرهم • وعندما كان يحتدم النقاش ، ويعلو الصياح بين هؤلاء المجتمعين كنت أرقب على أدهم يلوذ بالصمت ، ويرهف السمع ، حتى اذا هدأ الموقف ، راح يدلى بدلوه ، ويصرح برأيه فيما يعتركون حوله • فعرفت أن من سجاياه وسلائقة عدم الصخب والجدل الشديد من أجل فرض قالته ، واعلاء كلمته •

---

(١٠) مشكلة الشر والالم عند العقاد ــ الهلال ابريل ١٩٦٧ •

ثم أخذت أتردد عليه فى بيته الذى يقع قريبا من مستشفى هليوبوليس، ومما جعل زياراتى اليه كثيرة أن سكنى غير بعيد عن منزله ٠

كان يلقانى فى حجرة وسيعة فوق سطح عمارته ، وكانت هذه الغرفة تضم مكتبته ، ولما بادرته بالسؤال : ألا تخشى أن تسرق المكتبة وهى فوق السطوح ؟ فرد قائلا ! ان اللصوص لا يسرقون الكتب ٠ والأدباء ليسُوا مهرة فى السرقة ٠

ومكتبته تتسع لعدة آلاف من الكتب ، منظمة مرتبة ، ونظيفة ، ومعظم الكتب فى حالة جيدة وان كانت قديمة الصدور ٠ ومن يتأملها يجد القسم الانجليزى فيها أكثر من القسم العربى ، وتضم المؤلفات الفلسفية والتاريخية مثل كتب كارليل وهيجل وسبينوزا وشوبنهور وكروتشــــه ، وماكولى ، وهازلت وغيرهم ، كما تضم كتبا عربية للمسعودى وابن بسام وياقوت ، والمقرى ، وابن خلدون ، وأجزاء من الأغانى وكثيرا من دواوين العرب الى جانب مؤلفاتٍ حديثة ٠ هذا غير أعمال روائية لتولســتوى وتشــيكوف وترجنييف ودستوفسكى وسومرست موم وولتر سكوت ٠ وبالرغم من أن مكتبته لا تخضع للتنظيم العلمى الا أنه كان يعرف مكان كل كتاب فيها ٠ فاذا دعت الضرورة إلى تبين شىء بعينه نهض فى خفة واتجه إلى مكان الكتاب والتقطه فى يُسرٍ وسرعة ٠

وبالرغم من أنه لم يكن شاعرا الا أنه ذواقة للشعر ونقادة له ، وذاكرته تعى مادة شعرية متنوعة وغزيرة ، فاذا واتت مناسبة ألقى شعرا كثيرا ، وأحيانا يتوقف ليشرح كلمة ، أو يلفت النظر الى حادثة تضمنها بيت ثم يعاود الإلقاء ، أما الشعراء الذين كان يستعذب شعرهم فهم أمثال الشريف الرضى ، وابى تمام والبحترى ، وأبى العلاء ، وابن الرومى ، وعنتره ، وبعض الأندلسيين ، أما المتنبى فأكاد أقول انه كان يحفظ ديوانه الا ما ندر من أبيات وقصائد ، وكان يعجب بكثير من شعر شوقى ويمثل لذلك بقصائد وأبيات له يلقيها فلا يتعثر ، وكان يقول لى : ان العقاد يعرف قيمة شعر شوقى أكثر من المتشدقين به ، والمدافعين عنه ٠ وكان يقدر شاعرية العقاد وشكرى والمازنى ٠ وبالرغم من أن الدكتور أبا شادى مدحه بقصيدة الا أنه لم يكن حسن الرأى فى شعره ٠

وعلى أدهم موضوعى فى كل ما يصدر عنه ٠ سألته يوما عن خادمته وكانت قد تركته لتعمل عند آخرين ٠ فقال :ان فيها بعض الجوانب الحسنة وبعض الجوانب السيئة ، وأخذ يسرد شيئا من هذا وذاك وكأنه يحلل شخصية أدبية أو تاريخية ، ولم ألحظ أنه كان يتحدث بانفعال أو انحياز ٠ وهذا مثل يرينا كيف كان يفكر فى الأمور حتى العادى منها ، وهو فى دراساته المنشورة يقلب موضوعه ولا يأخذ جانبا ويترك آخر وانما يذكر ما للشىء وما عليه ٠

وقد عرفت فيه التواضع الأصيل ، والصراحة وعدم التعالم ، قلت له يوما :

يقولون ان فلانا يعرف سبع لغات معرفة جيدة . هل هذا ممكن ؟ فرد قائلا : لا تصدق . انى أقرأ الانجليزية منذ أكثر من ستين سنة قراءة جادة ، وأحيانا أرجع الى المعاجم لاكشف عن كلمة مكونة من ثلاثة أو أربعة حروف .

ولم أعرف فى صاحبى ـ وبخاصة فى سنيه الأخيرة ـ حب المنافسة والسباق لاحراز التفوق ، واثبات التميز ، وانما كان يعرف هدفه ويتجه اليه ، ويقنع من الدنيا بقليلها . ولا أنسى يوما كنا عائدين فيه من تريومف سيرا على الأقدام واذا بسـيارة تسابق الريح وتجرى بجانبنا ، فتأسى لذلك : وقال : انى أرغب فى امتلاك سيارة صغيرة تريحنى من صعوبة المواصلات وأسير بها على جانب الطريق فى بطء .

قلت : ولماذا على جانب الطريق ؟ قال : لكى أخلى الطريق لمن يرغب فى السبق والطيران .

وكان على أدهم مغرما بالتاريخ الأندلسى وله فيه دراسات كثيرة ، كما كان معجبا بكارليل . ولما زار أوروبا تعمد رؤية بعض معالم الحضارة العربية فى الأندلس وبخاصة فى غرناطة آخر المعاقل الاسلامية التى سقطت فى يد الأسبان ، وقصد الى بعض الأماكن التى درات فيها معارك عبدالرحمن الناصر مع البشكنس ، ثم عرج على انجلترا ليزور بيت كارليل فى ويلز . كذلك ذهب الى أمريكا عام ١٩٧٠ لزيارة بعض أولاده(١٣) وهناك فى لوس انجلوس ألقى محاضرة باللغة الانجليزية عن تاريخ الاسلام أبدى السامعون اعجابا بها ، ومما رواه لى وأثار دهشتى : أن المسلمين فى تلك المدينة يصلون الجمعة يوم الأحد ، ومسجدهم عبارة عن شقة مؤجرة لهذا الغرض .

وظل أدهم فترة طويلة يقرأ مجلة التايم التى تصدر باللغة الانجليزية ويتابع فيها أخبار الكتب التى تظهر فى أوروبا فاذا أعجبه منها بعض الكتب سعى الى شرائها وبذلك كان يقف على اخر ما تصدره المطابع الأوروبية . وكان يحدثنى عن بعض ما يلفت نظره . قال لى ذات يوم : كم تقدر عدد الكتب التى صدرت عن نابليون ؟ قلت بالطبع كثير . ولكن لا أعرف على وجه التحديد عددها . فقال : لقد أجرى احصاء عن أهم شخصيتين فى التاريخ كتب عنهما . فاذا بالمؤلفات عن نابليون تجاوزت ثلاثة عشـر ألف كتاب بينما كتب عن المسيح ليه السلام أحد عشر ألفا فقط . ثم أضاف قائلا : انى أمتلك أحد عشر كتابا عن نابليون من ثلاثة عشر ألف كتاب .

وقد شـغلته الكتب التى كان يراجع ترجمتها عن تأليف الكتب الهادفة ، كما أن عدم ثقته فى الناشرين ومسئولياته فى الحياة جعلته ينصرف الى كتابة المقالات فى الدوريات المختلفة . وان كنا ظفرنا منه

---

(١١) أنجب على أدهم ثلاثة أولاد هم : الدكتور نزار والمهندس سامى والأستاذ محمد وبنتين هما : الأستاذه آمال والدكتوره نبيلة .

بطائفة كبيرة من المقالات ، الا اننا خسرنا كتبا كان يمكن أن يكتبها فى موضوعات محددة ومستقلة ، وعلى سبيل المثال كان ينوى تأليف كتاب عن « مكيافيللى » يبين فيه صلة الأخلاق بالسياسة ، ويدافع عنه فيما لصق به من اتهامات كان بريئا منها ، وكان يقول لى : ان مكيافللى أقل مكيافللية من المكيافللين · وقد خطى خطوات فى هذا الكتاب الا أنه لم يتمه ، كذلك كان ينوى جمع مقالاته عن « العبقرية » السابق نشرها فى مجلة « المقتطف » ومجلة « الثقافة » (لأحمد أمين) ويعيد فيها النظر ويكملها ويخرجها فى شكل كتاب · ولكن مراجعة الكتب المترجمة ، وتدبيج المقالات وغير ذلك حال دون انجاز ما يريد ·

ولم تكن الثروة مغنمه ،ولا الشهرة العريضة مطلبه من وراء مايؤلف، وقد أخبرنى ذاتيو م أن الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام الأسبق طلب لقاءه وعرض عليه أن يكتب للأهرام فرفض بحجة أن الكتابة الصحافية فى الجرائد اليومية تحتاج الى نوع من الرجال غيره ·

وقد كانت تؤرقه مصلحة الضرائب بالتقديرات الخيالية مع أن العائد المالى عليه من تأليفه قليل · وكان يقول لى : ان الكاتب فى أوروبا يعفى من الضرائب اذا بلغ السن القانونية ·

وعندما كان أدهم أحد المشرفين على سلسلة « اخترنا لك » صدر كتاب « حقيقة الشيوعية » وجاء على غلافه أنه من تأليف : أمين شاكر وسعيد العريان وعلى أدهم · وقد حملت ـ فى يوم من الأيام ـ نسخة من هذا الكتاب وذهبت اليه وطلبت منه أن يحدد نصيبه فيه · فقال : « من ص ٩ (أى بعد المقدمة مباشرة التى كتبها جمال عبد الناصر) وحتى ص ١٧٨ من تأليفى · وليس لسعيد العريان الا فصل « النشاط الشيوعى فى بلادنا » وفصل « الشيوعية والدين » وهما فى الكتاب من ص ١٧٩ وحتى ١٩٨ أى نهايته · فقلت له : وأين نصيب أمين شاكر ؟ فأجاب : لم يكتب شيئاً وإنما وضع اسمه فقط · وقد روّعنى هذا الخبر وأدهشنى وقلت فى نفسى أيصل الزيف إلى هذا الحد ؟ · كان أمين شاكر فى ذلك الوقت يشغل منصباً كبيراً وقد استغل مركزه ليضع اسمه على عمل فكرى لم يشارك فيه · وربما كان ذلك من أجل التقرب الى السلطات العليا ··

وفى ١٩٨٠/٣/٢٩ نشرت جريدة الأخبار حديثاً أدلى به اللواء متقاعد حسن المصيلحى ، الذى كان مسئولا عن مكافحة الشيوعية فى مصر ، نسب فيه كتاب « حقيقة الشيوعية » لأمين شاكر · والحقيقة أن أمين شاكر لا صلة له بتأليف الكتاب · وعندما أعاد « المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر » طبع كتاب « حقيقة الشيوعية » عام ١٩٧٤ وضع على غلافه اسم على أدهم فقط · وقد وازنت بين النسختين فوجدت أن الطبعة الجديدة تشتمل على الفصـــول التى كتبها على أدهم تاركا الفصلين الأخيرين اللذين وضعهما سعيد العريان · ونتساءل كيف يكون كتاب « حقيقة الشـــيوعية » من تأليف أمين شاكر عام ١٩٥٥ كما قال المصيلحى ثم يصدر فى طبعته الجديدة عام ١٩٧٤ باسم على أدهم دون

احتجاج أمين شاكر أو المصيلحى ؟ وأحاديث على أدهم شائقة ممتعة ، ولكن ذلك يتوقف على جليسه الذى يختار الأسئلة التى تشحذ قريحته ، وتنشط ملكاته · وقد تختلف معه فى الرأى الا أنه يستمع لوجهة النظر المخالفة بنفس هادئة مهذبة بالرغم من عدم موافقته عليها وحماســته لغموذها ·

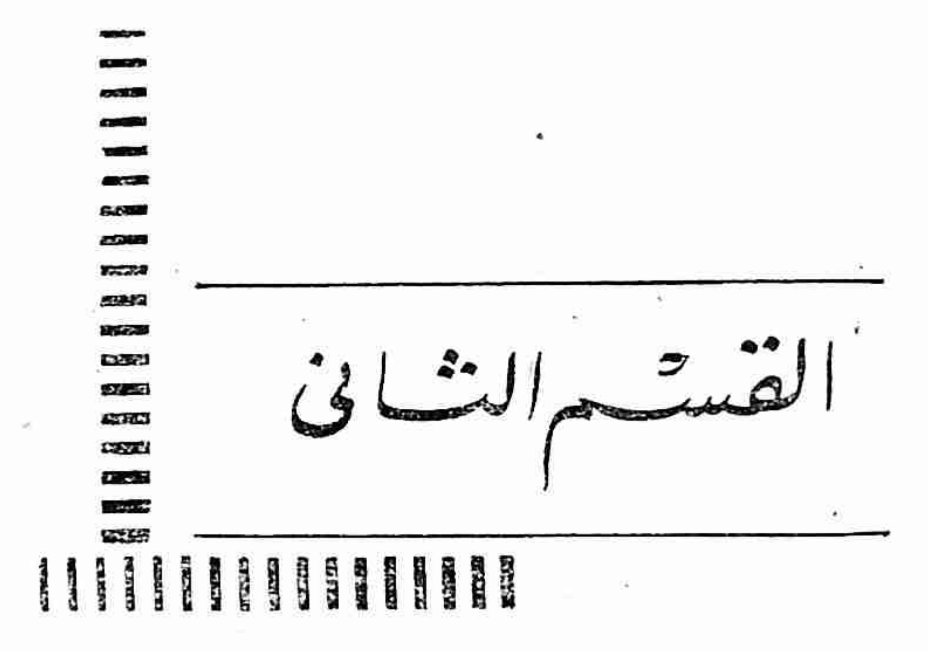
ولا أستطيع أن أسرد كل ما قيل فى ستة عشر عاما ،وقد ساعدنى ذلك السّمَر على استنباط خَوَا فِي نفسه الظامئة أبداً إلى المعرفة ، المحبة الحكمة ، التواقة للإنصاف · ومهما قلت فى شأنه فإن كلامى يعوزه كلام، وحديثى مقصر عن الإحاطة به ، ورسمى لصورته دون حقيقته ··

وفـــــاته :

وقد عانى على أدهم كثيرا من مرض القولون · وكان يعتقد أن هناك صلة بين الفكر ومرض القولون ··

وفى الثامن من يناير عام ١٩٨١ اخترمه الموت ولفه فى برديه بعد معاناة مرضية ، وشيعت جنازته فى موكب بسيط ودفن فى مقابر الأسرة بحى البساتين ·

ولقد روعنى نبأ وفاته وفقدت فى رحيله أبا حانيا وأستاذا موجها ، وصديقا ودودا ، وبعد رحيله لم تقم له جهة من الجهات حفلة تأبين ، وما كتب عنه عقب موته قليل · قليل ولا يفيد أن مصر فقدت واحدا من علمائها الكبار ·



القسم الثانى

أدب ونقد

- النقد الأدبى بين التأثيرية والموضوعية
- تقدير النقد الأوروبى
- موقفه من الفنون
- خصائص أسلوبه

النقد الأدبى

بين التأثرية والموضوعية

من شئون النقد معالجة مشاكل الأدب ، وتمحيص قضايا الفن ، وارسال النظرات فى القوى الكامنة فى الأديب أو الفن لتوضيح مدى قدراته على الخلق والابتكار . وان كنا فى شديد الحاجة الى طرافة الابداع ، فانه تعوزنا أيضا قوة النقد لأنه يعمل على ايقاظ الكاتب ، وانقاذ الأدب .

وعلى أدهم ناقد موضوعى ، يميل الى التحليل ، والتعليل ، ولا ينكر دور الذوق فى كتاباته ، ولكن لا يوكل العملية النقدية برمتها اليه . عبادته هادئة رشيقة ، ومعانيه - على جلالها - سافرة ضاحية ، وحكمه على الآداب والفنون لا يأتى الا بعد مصابرة ومراجعة واستيفاء الموضوع الذى يطرحه للنقاش . يقول فى كتابه « فصول فى الأدب والنقد والتاريخ » ، « جميل أن يقوم النقد على أساس المعرفة الدقيقة .. وأن تضىء جوانبه لمعات الأفكار العادلة المتزنة ، ويبدو فيه الانصاف ويخلو من البداوات الشاذة ، والاحكام المبتسرة ، والنظرات السطحية الطائشة ، والنزوات المضللة » .

لذلك لم يكن النقد عنده تحرى السقطات ، واستظهار الأغلاط ، والنيل من الأعمال ، وانما النقد عند أدهم - فى الغالب الأعم - ادراك أسرار النصوص ، وابراز الجوانب الممتعة فى الكتب ، والاشادة بالطرف الفنية ، واظهار القيم الجمالية فى الموضوعات الأدبية التى يطلعنا عليها بالعرض الشيق والنقد الصالح ، مسترشدا بآراء الآخرين ، موازنا بين الروائع الفنية ، مع توضيح العلائق بينها ، والخصائص المشتركة فيها والحاق النظير بنظيره .

الذوق والنقد الطبيعى :

ويرى على أدهم أن «النقد بعد كل شىء ، أو قبل كل شىء مرده الى الذوق والبصيرة ، والناقد كالشاعر يولد ولا يصنع »[1] .

---

(1) على هامش الأدب والنقد .

ويذهب الى أن كثرة المعلومات ووفرة المعارف لا تجدى فى التقدير الفنى والتذوق الأدبى مالم يصاحب ذلك الذوق العالى والخيال السامى لأن استشفاف الأشياء والخلوص الى اباب الحوادث فى حاجة الى « رؤية موفقة وزكانة ملهمة »(٢) ٠

وينظر على أدهم الى النقد على أنه فن « يرشدنا فيه الاحساس والالهام قبل أن يهدينا التفكير المنطقى والبحث العلمى »(٣) ٠

ولا شك أن الفطرة السليمة فى الانسان تجتهد فى تفهم الأبعاد فى الأعمال الأدبية أو الفنية ، وادراك التجانس والتنافر بين الأشياء بالشعور المكثف ، والمخيلة القوية ، ومازال النقد يرتبط ابتداء بالتذوق والتفهم لأن العاطفة الانسانية الحساسة هى التى تتلقى التأثيرات الخارجية بشكل سلبى أو ايجابى ٠

ولكن الذوق المصفى لا يستطيع أن يقدر لكل الفنون قدرها لارتباط بعضها بأحداث تاريخية واجتماعية وعقائدية ٠

ومما نأخذه على النقد الذوقى أنه عمل منعزل لأنه يخضع للذات وللتقدير الشخصى ، ويتوقف على مدى وعى المتذوق بالفنون والآداب ومدى ادراكه لجوانب الخصوبة ، ومواطن الجمال فى العمل المطروح للمناقشة النقدية ٠ ومن أسباب انعزال النقد الذوقى أن المتذوق لا يشعر بالعمل الفنى الا اذا أثر فيه ، ووافق ميوله ورغائبه ، وساير اهواءه ومعتقداته ٠ أى أن المتذوق لا يتأمل العمل الفنى كموضوع من كل زواياه بقدر ما يتأمل نفسه وهى تلفظ أو تستجيب لتأثير الفن فيها ٠ وهنا يكمن النقد للتقدير الذوقى اذ انه ليس بالضرورة أن ما يروق لشخص يروق لكل الأشخاص ، وكم ننتقد فى حياتنا العملية أناسا لعدم توفيقهم فى اختيار الألوان المناسبة لهم فى الملبس ، أو فى تزيين جدران المنزل بما لا يلائمها فى حين أنهم مقتنعون بصحة مافعلوا ، وسعداء نفسيا بصنيعهم ٠

ومن مزالق الحكم النقدى المستند الى الذوق أن كثيرا من الأذواق تصدر حكما سريعا على الطرائف الفنية بعد لمحة عاجلة ، أو نظرة خاطفة بينما التقدير السليم يستلزم الافادة من جهود الآخرين فى هذا المجال والاحاطة بجملة من المعارف المتعلقة بالفنون ، ومعاودة النظر فترة بعد فترة للتخلص من الانفعالات الفورية التى أحدثتها البدائع الفنية ، ومراجعة النفس فى شىء من الروية والأناة ٠ لأن ثمة سببا آخر يؤثر على النقد الذوقى وهو الحالة النفسية للمتلقى، أو مختلف الحالات العاطفية والشعورية للمتذوق من انطواء وانطلاق ، واكتئاب وسعادة ، وسخط ورضى ، مما يجعل النقد فى هذه الحالات تأثريا بحتا وانطباعيا مطلقا ، لأن أكثر انشغالات النفس بأمرها أو بما يخصها ٠

---

(٢) المصدر السابق ٠

(٣) المصدر السابق ٠

فالنقد ليس نظرة اعجاب أو اشمئزاز وأحكاما عفوية عاطفية تصدر عن الذوق ، وانما هو رحلة الى عالم زاخر بالجمال والخيال والالهام والمعانى والقيم . الأمر الذى يحتم علينا أن نتزود بمعارف كثيرة الى جانب الذوق .

والنقد الانطباعى أو التأثرى فطرى فى الانسان ، وقد قال اليونان « بأن الانسان مقياس لكل شيء » فلا مقاييس خارجية ، ولا مذاهب تقيد الذوق أثناء تقدير الآثار الفنية وحسب القراء ما استرعى انتباه النقاد وحفلوا به ، ويبدى على أدهم قدرا كبيرا من التجـــاوب مع التأثرات الشخصية الناتجة عن الاتصال بالفنون فيقول : « ان التأثرات التى تخالج نفوسنا ازاء أى طرفة من طرف الفن لها قيمة كبيرة فى تقديرنا لها »(٤) .

نقد الذوق والاتجاه الى الموضوعية :

وقد كان النقد – فى العصور الخوالى – يعتمد على التذوق عند نشأة الفنون والآداب ، فأحكام الناس على الأشياء المبتكرة لا تتكيء – فى تلك الفترات الموغلة فى القدم – على علوم أو معارف حصلوها ، ومن ثم فتجاوب المرء أو عدم تجاوبه مع الفن والأدب مرجعه الى العاطفة التى تقبل البدائع أو ترفضها . ثم أخذت تنشأ العلوم ، وتتكون النظريات ، وراح يتسع فكر الانسان وأفقه ، ويستوعب الجديد ويتأثر به فى الحكم على ما يعرض له . فلا جرم أن رأينا بعض الدارسين يضعون النص الأدبى فى ضوء عصره وبيئته ، ويقفون عند نفسية صاحبه ، ويذكرون أطرافا من الحضارة التى تنتمى اليها الفنون المطروحة على مائدة البحث ، وهى عناصر جديدة طرأت على العملية النقدية عبر العصور المتلاحقة .

وقد تطور مفهوم النقد عند على أدهم ، فلم يعد يستند الى الذوق الخالص ، بل أخذ يطعن فيه ويقلل من شأنه ومنزلته وفى هذا يقول : « حكم الذوق لا يخلو من الشك ، وليس هو حكما قاطعا مانعا مثل أحكام العلم وقضايا المنطق »(٥) ويمضى على أدهم ليبين تقلب الذوق ، وتغير الحكم من شخص الى شخص ومن وقت الى وقت فيقول : « على أن الذوق الأدبى قد يختلف ويتعارض ويتفاوت ويتناقض ، واذا أجمع الذوق فى عصر من العصور على استحسان لون من ألوان الأدب فلا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق هل يرضى هذا اللون العصور التالية أو لا يرضيها ، وحتى كبار النقاد تتعارض أحكامهم » .

لذلك رأينا النظرية النقدية عنده تقلل من الاعتماد على الذوق وتمضى قدما لتتنـــاول الفنون بتعبير أدبى تحت رقابة عقل يقظ يتعـــرف على الخصائص ، ويحاول ايجاد العلائق بين المقتضيات ، ويشرح الأبعاد بين

---

(٤) فصول فى الأدب والنقد والتاريخ .
(٥) فصول فى الأدب والنقد والتاريخ .

الأحداث ، ويربط بين المفهوم العقلى والمتحققات الفنية ، ويبحث عن صلة بين الاطار العام للعصر والاطار الخاص للمبدع ، ولا يوقف درسه على المتعة الحسية ، بقدر ما ينشط ذهنه للتعرف على الحقائق والمعارف فى النصوص والفنون ٠

وراحت تتسع نظريته فى النقد فأخذت - الى جانب الذوق - من العلوم ما يضع النص فى دائرة الضوء ، ومن أهم هذه العلوم التى أثرت فى عملية النقد أو فى الذوق الفنى عند أدهم ٠ الفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس ٠ ولكن أكثر ما تأثر به تقديره للفنون : الفلسفة والتاريخ وفلسفة التاريخ ٠

بين الفلسفة والأدب :

ولا يعنى هذا أن نظريات الفلسفة المتباينة ستقتحم عالم الأدب وتستغرقه ، أو أن مذاهب التاريخ وفلسفته ستفرض فرضا على تيارات الفن واتجاهاته ، وانما يحسن أن نستمد مبدأ من مبادىء الفلسفة أو الفلسفة التاريخية ونطبقه على نتاج أديب تغلب عليه نزعة فكرية معينة واضحة المعالم ، مطردة السمات ، أو له رؤية منتظمة الايقاع تفسر حركة التاريخ أو تفلسف مواقف الانسان ازاء الوجود ٠

والأدب كله ليس خواطر متناثرة ، أو أفكارا شاردة موزعة ، وانما من الأدباء من له موقف من الحياة ، ونظرة شاملة فى الانسان ، وفكرة عبقرية عامة تفلسف الزمن ، وتظهر حركة الانسان فيه ، وأمثال هؤلاء يمكن أن يكونوا من الفلاسفة المتأدبين ، أو من الأدباء المتفلسفين ، وهنا تلتقى الفلسفة بالأدب ٠

وفى الأدب العربى شعراء يجمعون بين الفلسفة والأدب ، أو بين الطرافة الفنية ، والأفكار العميقة المحددة المطردة فى اتجاه معين ، ومن هؤلاء حكيم المعرة الذى ينكر فكرة التقدم ، وميخائيل نعيمه الذى يتمركز أدبه حول « وحدة الوجود » وايليا أبى ماضى الذى يمكن وضعه مع « اللاأدريين » ونزار قبانى صاحب النزعة الأبيقورية ٠٠ الى آخره ٠٠ ولا يعنينا من هؤلاء صحة مذاهبهم فى تفسير ألغاز الكون وكنه الانسان وماهية الحياة ، وانما يعنينا أن لهم مذاهب أو مواقف ثابتة ، وأفكارا تنتثر حول محور جلى القسمات ، أو تنتظم فى اطار محدد الأطراف ٠

ولاشك أن الأدب يتغذى على العلم ، ويسترفد الفلسفية ، ويستمد من التاريخ بعض مقوماته ، وأسباب حياته ، لذلك فالأديب المستوعب لكل هذا أرحب نظرة ، وأوسع أفقا ، ونتاجه أطول عمرا بل هو أقوى من الأديب الذى ينزوى داخل نفسه ولا يطلعنا الا على خوالج شعوره ، وخوافى ذاته ٠

لذلك يرى على أدهم « أن التفكير الفلسفى يجدى على الأدب ويزيد من ثروة الخيال ، ويعين على اطلاق العقول من قيود الأهواء والنعرات

وتصفيتها من شوائب التعصب الضيق ، وتأمل عظمة الكون ، وجلاله يكسب الفكر عظمة وجلالا »(٦) ويقول فى موضع آخر : « ان نهضة الادب لا تتم ولا تستكمل نموها الا اذ اقترنت بنهضة الفلسفة ووثبة العلم » ويقول : « من قصور الثقافة اعراض الأدباء عن العلم وزهدهم فى الفلسفة، وبين الأدب والعلم والفلسفة صلة عضوية متينة لأنها مظاهر حياة الأمم الروحية »(٧) .

وقد أجدت عليه قراءة العلوم المختلفة فى تفسير الادب وتحليله ، والاحاطة بمغزاة وفحواه ، فاستند ـ مثلا ـ الى انكار فكرة التقدم عند شوبنهور التى لا تتفق مع أبدية الدنيا فى فهم وتفسير بيت أبى العلاء :

وآخر الدهر يلقى مثل أوله
والصدر يأتى على مقداره العجز

وقد راقت له فكرة الموازنة بين أبى العلاء وشوبنهور الفيلسوف الألمانى ، لما بينهما من التشابه والتقارب فى المشارب واتجاه الذهن ، والمزاج النفسى المنطير والتبرم بالحياة رغم بعد الزمان ، وتفاوت المكان ، واستخلص من نتاجيهما نظرات متقاربة فى الانسان والحياة ، فكلاهما يرى العدم وسيلة الخلاص ، واذا كان الشقاء هو غاية الحياة عند شوبنهور فهو من واجبات الحياة عند حكيم المعرة ، هذا الى جانب سوء ظنهما بالانسان ، واتفاقهما على قسوته ، وارادة الحياة عند شوبنهور يقابلها حب الحياة عند أبى العلاء ، هذا عدا تماثل آرائهما فى المرأة والزهد ، وانكار فكرة التقدم فى الحياة(٨) .

وهذا العرض أو النقد الذى قدمه أدهم عن فلسفتى حكيم العرب وفيلسوف الألمان قوامه العقل قبل الذوق ، ومداره على الموضوع قبل الذات .

ان الفيلسوف ينظر الى الحياة فى عمومها من زاوية ، والأديب ينظر الى الانسان والوجود من زاوية ، فاذا تلاقت الزاويتان ، أو تقاربت النظرتان فانه يمكن الموازنة ـ وهى نوع من الأحكام العقلية ـ بين شاعر كأبى العلاء « أقرب الشعراء الى الفلاسفة » وفيلسوف كشوبنهور « أقرب الفلاسفة الى الشعراء والكتاب » وهى نقطة من نقاط التقاء الفلسفة بالأدب .

ورغم هذا يدرك على أدهم الفوارق بين الفن والفلسفة فيرى أن وظيفة الشعر مجالها اظهار الجمال ، ووظيفة الفلسفة مجالها الحق . ويورد قول كيتس « ان الجمال حق ، والحقَ جمال » فى محاولة من الشاعر الانجليزى للتوفيق بين الميدانين . ولكن أدهم يرى « أن التفسير الفلسفى للحياة غير التفسير الشعرى » ويستشهد على ذلك بقول بندكروتشه الذى

---

(٦) بين الفلسفة والادب .

(٧) على هامش الادب والنقد .

(٨) على هامش الأدب والنقد .

يرى أن الفن سابق على الفكر ، وأن الفلسفة تضعف الخيال ولا تجسم العقل ، بينما الشعر يقوى الخيال ويجسم الفكر وينتصر لهذا الرأى ، ويوازن بين شكسبير وشوبنهور ويذهب الى أن « شكسبير وظيفته أن يمثل ويصور ، أما شوبنهور فطريقته أن يشرح ويفسر ، وقد تظفر فى روايات شكسبير بالحكم القيمة والنظرات النافذة وضروب الفلسفة العالية ولكنها ليست هناك لذاتها وانما هى جزء من البناء الفنى وقطعة من الصورة اقتضتها ضرورة التصوير ، وقد تقرأ لشوبنهور الروائع الأدبية والخيالات الشعرية ولكنها ليست واردة فى كتاباته لغرض فنى وانما هى هناك مدرجة للتجريد وسلم يرتقى به للفكرة العامة »(٩) ٠

ويوجز القول بأن « الشاعر هو احساس الانسانية والفيلسوف هو عقلها ولا انسانية بغير احساس وعقل »(١٠) ويستشهد بالبيت القائل :

وعقل الفتى نصف ، ونصف فؤاده

فلم تبق الا صورة اللحم والدم

فى محاولة لاكمال أحدهما الآخر ٠

ان على أدهم يرى أن الفن يزداد قوة عندما يتشرب من الفلسفة والملم المبدع بها عتاد له « يعينه فى السمو الى مراقى الفن » ومن ناحية أخرى يآلف بين الفن والفلسفة ما استطاع الى ذلك سبيلا على نحو ما سنرى فى التقريب بين فلسفة التاريخ والفنون ، رغم معرفته بحدود الموضوعين ٠

النقد والتاريخ :

واذا كانت الفلسفة تثرى الأدب وتجدى فى تقديره وتلفت نظر الناقد الى تأمل عميق للكثافات المعنوية ، والاتجاهات الذهنية فى مجال الفنون وتعين فى تحديد نظرات الأدب فى الطبيعة والزمن والمصير المحتوم المجهول للانسان ، فان التاريخ ومذاهبه وفلسفته تفيد فى تفسير الابداعات الفنية ، المضامين الأدبية ٠

وقد ربط على أدهم بين الأدب والتاريخ والنقد فى أكثر من موضع مؤكدا على أهمية قراءة التاريخ فى الابداع والنقد جميعا فيرى أن الثقافة التاريخية لها « دخل كبير فى تكوين شعراء العالم ، وفى أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتى وشلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض كبار الشعراء بتناول التاريخ فى منظومات الشعر وروائع الملاحم ، بل وقف جزءا من حياته على كتابة التاريخ كما فعل شلر فى كتابه تاريخ حرب الثلاثين سنة ، وكما فعل جيتى فى مقالاته الانتقادية »(١٠) ٠

---

(٩) بين الفلسفة والادب ٠

(١٠) بين الفلسفة والأدب ٠

وفي كتابه على هامش الأدب والنقد يؤكد على أهمية الاستقراء التاريخي والتجول في نواحي الماضي والهبوط الى أعماقه في تفهم الفنون وتذوقها . لذلك يرى أن « التفسير التاريخي للأشياء يفتح الطريق للتقدير الفني » .

وربما لا أكون مخطئا اذا آزرت على أدهم في هذا المجال ، وفي اعتقادي أن استعانة الناقد بالروح التاريخية وثقافة الماضي على درجة كبيرة من الأهمية ، لأن المبدعين قد يحلو لهم تصوير الناس والأحوال في فترة من الفترات على هواهم ، وطبقا لميولهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية دون سند صحيح من الواقع التاريخي . والنقد في هذه الحالة لا يصير ملحقا من ملحقات الابداع ، وانما هو جزء من بنائه بما يحدد من معالم .. بما يكشف من مناطق .. بما يخلع من رؤى ويفلسف من مواقف .. باختصار ان النقد هو جناح الأدب الطائر ونوع من قياس الأدب بقراءة تاريخية وفلسفة انسانية .

ومن يتتبع أدهم يرى استعانته بالتاريخ وروحه في نقد الأدب وثم بعض الصور التي قدمها شاعر من الشعراء عن أناس في جيل من الأجيال .. وهذا هو المتنبي الذي صور أهل عصره أو أهيل عصره في صور ذميمة من مثل قوله :

أذم الى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم
وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

فان هذا التصوير قد جاوز الصواب ، وفارق الحقيقة ، لذلك انتقده على أدهم بقوله : « ولو كان عصر المتنبي من الحقارة والمهانة كما يصفه لنا لكان من حقنا أن نشك في أكثر الصفات التي يخلعها على ممدوحيه ، على أننا لا نستطيع أن نعتمد على تلك الصور التي رسمها لمعاصريه ، ولابد لنا من الرجوع الى مؤرخي عصره لتصحيح الصورة وتحري الحقيقة .. وصورة كافور الأخشيدي التي يقدمها لنا المؤرخون تختلف عن الصورة التي قدمها لنا المتنبي .. وانى أرجح أن الصورة التي قدمها المؤرخون أقرب الى الحق من الصورة التي رسمها لنا المتنبي . والمؤرخون بوجه عام أكثر تحريا للحقائق من الشعراء لأنهم أهدأ منهم نفسا وأقدر على كبح نوازعهم »(١١) .

وفي هذا النقد يستعين على أدهم بالتاريخ في نقد الأدب ، والكشف عن اساءات الأدباء ، والتهوين من مبالغاتهم في المدح والقدح .

---

(١١) على هامش الأدب والنقد .

ويمضى على أدهم فى النقد الأدبى ببصيرته الانسانية وبروح التاريخ فيفسر ظاهرة العطف المتفجر فى الأدب الروسى بأنها رد فعل لمعاناة الأمة الروسية من سوء الحكم وفساده ، وقسوة الحكام وطغيانهم وظلمهم(١٢) وهو تفسير تهدى اليه قراءة التاريخ حتى بدون ذكر التفاصيل والملابسات ٠

وعلى أدهم الذى أدمن قراءة التاريخ ومطالعة التراجم ، يخضع نتاج الشعراء الى سيرهم التاريخية ، ويرى أن حياة الشاعر تفسر شعره، وأن معلومة صغيرة تافهة تقرأ فلا نحفل بها قد تهدينا الى شىء هام فى تقدير فنه ، ويربط بين البلاغة التى هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال - والاعتماد على كتاب السير والمؤرخين ويقول : « اننا لا نستطيع أن نعرف الحال ومقتضاه الا اذا أحطنا بالظروف التى قيل فيها الكلام » ويضرب مثلا بأبيات للشريف الرضى قالها عندما امتهن بعض الديلم كرامة الخليفة العباسى الطائع ٠ والأبيات تظهر صدمة الشريف ، وتبدد أمانيه ، وعزوفه عن التطلع للخلافة ، ويبين مدى أهمية قراءة كتب السير لاستشفاف « روح الكلام والتشبع بمعناه الداخلى »(١٣) حتى يتضح المغزى ، ويبين الغرض ٠

وقد يصدق هذا الكلام على الشريف الرضى فى هذا الموقف وربما على غيره فى مواقف أخرى ، ولكن اطلاق الحكم معيب ، فبعض الفن لا يطابق حياة الشاعر وعلى سبيل المثال كان أبو العتاهية غنيا مبخلا ويتحدث عن الزهد ، وكان ابن الحجاج وقورا رزينا بينما كان شعره ماجنا ٠

ومقولة بلوتارك والتى تأثر بها على أدهم « ان العمل القليل الشأن أو الكلمة الموجزة أو النكتة العارضة أنم على أخلاق الرجل من أعظم الحضارات وأهم المواقع » تصدق على حياة البطل التاريخى أو الشاعر المبدع ، وربما لا تصدق على فنون قوله على طول المدى ٠

ويعارض على أدهم النظرية القائلة « بضرورة التفريق بين حياة المؤلف الخاصة وآثاره الفنية » ويقول : « فالرجل الأنانى المفرط الأنانية الحيوانى المزاج من العسير عليه أن يتذوق معنى التضحية »(١٤) وهذا المثل الذى ضربه أدهم قد يصح فى مجال الأخلاق والسلوك العملى فى الحياة ، وربما لا يصح فى النتاج الفنى ، فالعبقرية الفنية تطلق خيالها فى كل واد وتأتينا بالعجائب والطرائف ، وقلما تتعاصى أمامها الأمور الصعبة ٠ فعمل الذكاء شىء ، والسلوك الشخصى شىء آخر ٠ وقد يمتدح شاعر الكرم أو الشرف أو الأصالة ولا يكون هو كذلك ، وامتداحه هذه القيم ربما يكون

---

(١٢) تراث الانسانية : المجلد الثالث .

(١٣) على هامش الأدب والنقد .

(١٤) على هامش الأدب والنقد .

من باب التطلع اليها ، أو مداراة لنفسه حتى لا يتهم بضدها ، وربما من أجل الكسب والفوز بعطية أو منحة ٠

النقــد وفلســـفة التاريخ :

وينتقل على أدهم ـ فى مجال تطور نظرية النقد عنده ـ من التاريخ الى فلسفته فى تقدير بعض الآثار الأدبية ٠ فنراه يستخدم مصـطلحات يفسر بها الأدب مصدرها فلسفة التاريخ ٠

وهو عندما يتناول فلسفة التاريخ ويوظفها فى مجال النقد ، يقوم بعمل عقلى يفحص فيه الأدب من خلال تأمل دورات التاريخ وحركاته ، ويحدد نظرات تفسر أحداثه ، ويعين الأسس التى نهضت عليها الحياة فى فترة زمنية ، أو فى فترات متعاقبة بمذهب تاريخى أو مصطلح فلسفى ٠٠ فهو يراقب رؤى أديب ويتتبع خواطره ويلاحق تدرجها وسيرها فى خط مستقيم أو فى خطوط تتلاقى فى نقطة أو عند فكرة ٠ واطراد الفكرة التى تتناول الأشخاص ، وتعرض الأحداث يظهر لنا موقف الأديب من التاريخ ويحدد له فلسفة ٠

أى أن على أدهم يقرأ الأدب بعين التاريخ لتنكشف أمام بصيرته تلك الرؤية المنظمة المنسقة الشاملة لأديب ما تجاه الزمن والوجود وتصرف أبطاله فى عمل روائى ـ مثلا ـ من خلال تلك الرؤية الفلسفية التاريخية ٠ وبايجاز انه يخضع تصورات الأدب لتأملات المتفلسف فى التاريخ ٠

وقد طبق على أدهم فلســـفة التاريخ على عدد من الآثار الأدبية الذائعة ٠ نكتفى منها بمثلين أحدهما للروائى الروسى تولستوى والآخر للشاعر العربى أبى العلاء المعرى ٠

فهو ـ أى أدهم ـ عند قراءته لرائعة تولستوى « الحرب والسلام » يرى أبطاله يتفوهون بكلمات لا تخفى على الانسان البطولة ، ولا تشغله بالعظمة ، ولا تظهر تأثيره فى مجريات الأمور ، وارادته البشرية ليست واضحة الأثر فى توجيه الأحداث وادراك الفوز والنجاح ، فنتاشا احدى بطلات الرواية التى وقعت تحت تأثير جمال كوراجين تقول لصديقتها « اننى مسلوبة الارادة » « وان قوى داخلية تعمل فيها ولا تستطيع أن تحد منها » والقائد أندريه أحد أبطال الرواية يرى أن ماجرى فى المعركة كان اتفاقا ومصادفة ، وبيير يجلس تحت شجرة « ويقبل ما تأتى به الاقدار » بل يروى تولستوى معركة أو سترليتز بطريقة توحى الى القارىء بأنها سلسلة من المصادفات ٠ وفى مجال الموازنة بين نابليون وكوتوزوف ـ قائد الروس فى بوردينو ـ يرى تولستوى أن فكرة نابليون التى قوامها « أن خلاصة الفن الحربى أن تكون أقوى من العدو فى لحظة تسنح » « خذلته عندما تحول عنه تيار الحوادث » أما كوتوزوف فهو أحق بالعظمة لأن خطته هى « الصبر والزمن » ٠٠ الى آخره ٠

فهذه الكلمات والملاحظات وغيرها مما وقف عليه أدهم عند تولستوى

فى رائعته « الحرب والسلام » جعلته يرى لتولستوى فلسفة فى التاريخ تتلخص فى قانون « الحتم » الذى يعارض قانون « الارادة » ويستنتج من هذا أن تولستوى « ينظر الى العظماء على أنهم « عناوين » أو « رموز » تتسمى بها الحوادث ويستدل بها على اتجاهها ولا شأن لهم » بتغيير الأمور · ويعلق أدهم بقوله : « فالحوادث العظيمة التى وردت بالرواية مردها الى القدر المجهول الذى يحفز الناس الى الاتيان بأعمال تدهشهم ولا ينتظرونها من أنفسهم »(١٥) ·

وهذه الفلسفة التاريخية التى يفسر بها تولستوى غزو نابليون لروسيا لها ما يبررها عنده ، لأن الجيش الفرنسى كان أقوى من الجيش الروسى ، ولم يستطع كوتوزوف الصمود أمام الزحف النابليونى ، ولكن سير الحوادث جاء فى صالح الروسيا ، وتدخلت الطبيعة فى هزيمة امبراطور فرنسا · وفى مثل هذه الأحوال يقول الناس « جاءت من ربنا » لذلك فتولستوى يرى أن الأقدار هى التى وجهت الحوادث ، وحددت المصاير وان الجبر التاريخى أو « الحتمية القدرية » هى أصلح لتفسير واقعات التاريخ وأدواره من القول بالارادة الحرة والعظمة الشخصية ، والأثر الانسانى ·

ولا يعنينا من كل هذا الا أن أدهم تناول الرواية من زاوية فلسفية تاريخية لتفهم مشاهدها ، وتفسير حوادثها ، واستظهار الرؤية التاريخية تؤلفها تجاه واقعات التاريخ ودور الانسان فيها ، وأدهم المولع بالفلسفة ينقب فى أبطال تولستوى عن موقف ميتافيزيقى تجاه العالم ، بل ويمعن النظر ليستخلص فلسفة عامة لأخلاقهم تتبدى من سلوكهم المتجدد ، وتتحدد نزعاتهم من وراء تصرفاتهم وعلائقهم بالناس والأحداث ·

وصاحبنا يقرأ رواية تولستوى بروح تاريخية ، أى أنه يدرك أثر الزمن فى تتابع مشاهدها ليقدر مواقف أبطالها ، ليستخلص من مجموعها مبدأ عاما · وهو فى هذا يشبه المتأمل لأحداث التاريخ وأدواره وأطواره ، لأنه لايمكن انكار الشابكة التى بين التاريخ والأدب الروائى ، فأحداث الرواية تتغير مع الزمن مثل التاريخ ·

أما المثل الثانى فيتعلق بأبى العلاء ، وقد عقد له · فصلا فى كتابه « بين الفلسفة والأدب » ليكشف نظراته فى فلسفة التاريخ ، وراح ينتخب له أبياتا كثيرة تدل على اتجاهه ، وتحدد موقفه من الناس والتاريخ ، وأحكامه القاطعة فيها ، فيذهب أدهم الى أن أبا العلاء ينكر التقدم البشرى أو نزوع الانسان الى الكمال الانسانى والسمو الروحى ، ويضطره الأمر الى توضيح نظريتين تاريخيتين فلسفيتين : أحداهما هى نظرية التقدم والتضامن الاجتماعى ، والثانية نظرية الحركة الدائرة ، والتى ينتسب اليها أبو العلاء فى نظره الى التاريخ ·

ويشرح على أدهم النظرية الثانية بقوله : « مذهب الحركة الدائرة

---

(١٥) بين الأدب والفلسفة وانظر أيضا تراث الانسانية المجلد الثالث ·

بمثله القدماء بالأفعى التى تأكل ذنبها ، وأنصــــار هذا المذهب ينكرون الوحدة الاجتماعية والتقدم التدريجى الشامل ولا يعتقدون أن هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شراذم من الأفراد تستحثها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات » « ٠٠ والانسان فى رأى أنصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء ، مهجور فى هذا الكون المريب تلعب به الغرائز وتعبث به الأهواء وتغريه الأطماع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاكا ولا يملك لها دفعا » ٠ وفريق من أصحاب هذا الرأى « يبشرون باليأس والتزهيد فى الحياة ويندبون حظ الانسانية ٠٠ وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء ٠٠ والانتصار فى نظر أصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة ، والحياة دليل الموت ، والضوء رسول الظلام ٠٠ »

واننا نستشعر براعة على أدهم والمعينة وهو يطبق هذه النظرية على أدب أبى العلاء ، وكأنه صاغها من شعره ، أو نثرها من فكره ، فضرب الأمثال العـــديدة الدالة عليها من منظوم حكيم المعرة الذى ينكر التقدم الانسانى ولا يرى جديدا تحت الشمس فيقول :

يســـعون فى المنهج المســلوك قد ســبقوا
الى الذى هـــو عنـــد الغـــر مخـــترع

أبكار هذى المعـــــانى ثيبـــات حجـــا
فى كل عصـــر لها جـــان ومفـــترع

« وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كعاقبة المغلوب » فيقول له :

لا تفــــرحن بدولـــــة أو تيتهـــــا
ان المـــدال عليه مثـــل الـــدائل

وينكر على القدماء كرم الطبع :

ما كان فى الأرض من خـــير ولا كـــرم
فضـــــل من قال ان الأكـــرمين فنـــوا

ولا يعلق أملا على المستقبل ولا يرجو منه خيرا ، بل ان الشر قد يستفحل مستقبلا :

والله يحمـــد كلمـــا طـــال المـــدى
طغت الشـــــرور وقلت الأخيـــــار

ويأتى أدهم بقول أناتول فرانس (من أنصار انكار التقدم) عن تاريخ البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتو » ويعرض مايقابلها من شعر المعرى حيث يقول :

خلقنـا لشـــىء غـــير باد وانمـــا
نعيش قليــــــلا ثم يدركنــــا الهـلك

ومن الأبيات الأخرى التى تؤيد نظرية أدهم فى انكار المعرى فكرة التقدم ولم يستشهد بهمن شعر المعرى :

وهـــكذا كان أهـــل الأرض مذ فطـــروا
فـــلا يظـن جهـــول أنهم فسدوا

وقوله :

ولا تأمل من الدنيـــا صـــلاحا
فـــذاك هو الذى لا يســـتطاع

وعلى هذا النحو يمضى على أدهم ليحدد معالم فلسفة التاريخ عند أبى العلاء ويستعين بنظرية فلسفية فى فهم أدبه ، وتفسير مذهبه ، واتجاه ذهنه ٠

وواقع الأمر أن ناقدنا لا يقدم رؤية أبى العلاء للحياة فقط ، وانما يعرض علينا رؤيته هو لأدب المعرى ، وهو حينما يفعل ذلك انما ينتخب رؤية ، أو يحدد نظرة ، أو يختار فكرة يفسر بها ، ويحلل من خلالها وهذا ابداع نقدى فى اطار فلسفى ، وليس بالضرورة أن تكون رؤية أبى العلاء صالحة لتفسير الطبيعة البشرية وتفاعلها مع الحياة فقد تختلف الرؤى ، وانما يعنينا أن تكون نظرة أدهم نافعة فى تقدير فن المعرى والحكم عليه ، وتحديد مساره ، وفى اعتقادى أنه جاء بفكرة لامعة ، وخلاصة جيدة ، ورأى موفق غير مسبوق ٠ وما كان يفطن الى هذا التفســير التاريخى للأدب ، أو النقد المستند الى نظريات التاريخ وفلسفته لو لم يكن معنيا بهذا الأمر ، غزير الاطلاع فيه ، مع بصيرة نافذة معاونة ، وعقلية نابهة قادرة على النظر الكلى الشامل من خلال جزئيات شاردة ٠

فلســـفة الجمـــال :

ولا يغفل على أدهم عن فلسفة الجمال فى مجال نقد الفنون ، ونظرية الجمال أو النظر الفلسفى الى الفن مسألة معقدة تتداخل فيها الآراء ، وتتباعد فيها النظرات ، وانه من الصعب حصر الأفكار التى تناولت علم الجمال وتقدير الأعمال الفنية ، فهناك من قال ان الجمال هو الحرية ، وان الجمال هو الحق ، وان الجمال يتوقف على الذات ، وان الجمال يكمن فى المادة ، وهناك من قال أن الجمال يظهر عندما يعمل العقل فى المادة ٠٠٠ وهكذا لا نقف على رأى حاسم أو نصل الى نتيجة مؤكدة ثابتة غير قابلة للاصلاح والتعديل ٠

وأدهم يرى أن الفلسفة لا تستهدف « تحسين الفن وخلق مقاييس له » وانما دورها « اجادة التفكير فى الانتاجات الفنية والوقوف على سر

الاعجاب بها » وكلمة التفكير فى كلامه لها معناها ، أى أن الفلسفة لا تترك مسألة التقدير الفنى للذوق الفردى وانما تعلل لما تقول ، وتحلل ما تتناوله لتفسيره وتقريبة الى الأذهان ٠

ومن خلال قراءتى لعدة فصول كتبها أدهم عن الفن والجمال أدركت أنه يميل الى نسبية الجمال ٠ وضرب عدة أمثلة على ذلك منها صورة العذراء التى تحملط فلها « قد لا يكون تأثيرها فى نفس البوذى مثلا معادلا لتأثيرها فى نفس المسيحى » ويلحظ أن الأفكار المتداعية لها تأثير فى تقدير الجمال « لأننا مثلا فى العصور الحديثة نستريح الى رؤية الجبال الشاهقة والأراضى الجرداء المنبسطة لأنها تنسينا أثقال الحياة الراهنة ومتاعب العمل المرهق فى المدن ، ولكن شعور أسلافنا بها كان يختلف عن ذلك ، فقد كانت توحى اليهم الخوف ، والرهبة لتعرضهم فيها لضـــوارى الوحوش وفتاك اللصوص ومعاناة آلام السغب والظمأ » ٠

وكلام على أدهم هذا يقودنا الى القول بأن الجمال موجود وقائم بذاته ، ولكن الاحساس به يختلف من فرد الى فرد ومن عصر الى عصر ومن مكان الى مكان ومن حضارة الى حضارة ٠

ومن مظاهر تأثره بالفلسفة فى النقد اعتقاده بضرورة احاطة الناقد بجملة علوم من بينها علم الجمال ، وعندما يعرض لهذه النقطة يفرق بين الحس الجمالى وفلسفة الجمال ، وعنده « أن الصفة الحسية للجمال هى التى تظهر الفرق الجوهرى بين الفن من ناحية والعلم والفلسفة من ناحية أخرى » وفلسفة الجمال « تعنى بتصور الجمال العام ، وتشغل بالشىء الجميل المعين الى مدى مساعدته لها على كشف التصور العام للجمال » ٠

وقد عرض أدهم لبعض فلاسفة الجمال وناقشهم مناقشـــة جديرة بالنظر ، ومن بين هؤلاء صموئيل الكسندر الانجليزى وبندكروتشه الايطالى ٠٠ وغيرهما ٠

ونقف عند آراء بندكروتشه الذى يرى أن العملية الفنية تتم داخل عقل الانسان أو المفن ، والتعبير عن الشىء يكون تعبيرا داخليا ، وهو رأى غريب حقا لذلك يرد عليه أدهم بقوله : « كيف يستطيع الناقد أن يصدر حكما على عمل الفنان فى حين أن هذا العمل لايزال داخل عقله ولم يتخذ له وضعا خارجيا ٠ وتكون جميع التأثرات التى ألمت بالفنان قد تشكلت فى صورة لا تبصرها غير عينه الداخلية فليس فى وسع الناقد أن يبصرها » ٠

وهو أمر محير حقا على الأقل بالنسبة لكاتب هذه السطور ، فكيف نحكم للتعبير الفنى أو نحكم عليه وهو حدس فى داخل صاحبه ، فلابد له من الظهور فى الواقع حتى تتحسسه أحاسيسنا وتعمل فيه أفهامنا ٠ وانى اقر بأن التعبير الخارجى المنقول عن الصور العقلية المتخيلة فى داخل الانسان ربما لا يكون دقيقا أو وافيا ، ولكنه المظهر الوحيد ، والواقع الجديد الذى نتأمله ونقبل عليه ٠

ويزداد الأمر حيرة عندما يرى بندكروتشه أن التعبير الخارجى ليس فنا وانما هو حقيقة عملية أو حقيقة ارادية تخضع لقوانين أخرى تخالف مذهبه فى الفن الذى يعتمد على الحدس والتعبير الداخلى ويعلق أدهم مندهشا على ذلك بقوله : « وكيف يستطيع الناقد من مجرد رؤيته للشىء المادى أن يستعيد خلق الحدس الذى عبر عنه الفنان » .

ويرى كروتشه أن المادة تتوقف قيمتها على قدرتها فى ابتعاث حدس جميل فى نفس من يشاهدها لا غير ، والرأى عندى أنه مادام الأمر يتعلق أولا وأخيرا بالمادة وامكاناتها فانه لا يحق للناقد أن يوجه لوما لفن أو مبتدع .

واذا كان كروتشه يقول : « اننا لانبرز فى الخارج جميع تأثراتنا ، وانما نختار من طوائف حدوسنا » فانى أرد عليه بقولى ان عظمة المبدع تكون بقدر ما يبرز من تأثراته ، وبقيمة ما يعبر خارج حدوسه .

ومن ثم فقد وصف أدهم مذهبه بقوله : « وقد أحدث هذا الرأى شيئا من الفوضى والتخليط فى آراء بعض أشياع كروتشه فقد استغلوا هذا الرأى فى تأكيد أن كل موضوع صالح للتناول الفنى » .

مقاييس الأدب :

وينكر على أدهم أن يكون لتقدير الفن ونقده مقياس معين ، ويرى أن لكل شخصية ولكل عصر مقياسه ، وقد عاب على « بكل » وأضرابه وصفهم للعصور الوسطى بأنها عهود ظلام وخرافة لأن « بكل » وأشياعه يرون أن تقدم الانسانية رهن بتقدم العقل ، ويرد أدهم على ذلك فى كتابه « على هامش الأدب والنقد » بأن هذا المقياس لا يصلح لكل زمان وبيئة ، ورأى أن العصور الوسطى تقاس بثورة العواطف لا بتقدم الفكر والعقل ، وذهب أدهم الى أن العصور الوسطى تجلت فيها الروح الدينية التى الهمت المبدعين القدرة على تشييد الكنائس الدينية والتماثيل الفنية والصـــور الجميلة و « سادت فيها أقاصيص الفروسية وأعمال القديسين والأطهار التى يتجلى خلالها صفاء الروح » .

وقد قال بعض النقاد الأوزبيين بأن لكل عصر مقياســـه ومن بينهم كارلونى وفيللو حيث ذهبا الى أن « أشكال الفن تابعة للعصر الذى تتفتح فيه ولايمكن الحكم بطريقة واحدة على مؤلفات من عصور مختلفة »(١٧) .

واذا كان أدهم مسبوقا فى هذا الرأى فان براعته تجلت فى تطبيقه على أمثلة كثيرة فى عصور متباينة ومع عديدين ، ويبدو أن هذا الاتجاه أصيل فى فكره لأنه يتكرر فى فصـــوله بطريقة تلقـائية مثل قوله « أن

---

(١٦) فصول فى الأدب والنقد والتاريخ .

(١٧) النقد الادبى لكارلونى وفيللو ترجمة كيتى سالم .

الانتاجات الفنية من بعض الوجوه تعبير جميل عن فلسفة العصر »[١٨]
وفى موضع آخر يفرق بين عهد المشادة وعصر الاستقرار فى الابداعات
الفنية · وهى وجهة نظر صالحة عند الحكم والتقدير ، ولا يفوته أن مبدعا
أو مفكرا قد يؤثر فى عصره ·

خلاصـــة مذهبه فى النقد :

اننا اذ ذهبنا الى تقويم أثر النظريات الفلسفية أو مذاهب الفلسفة التاريخية فى عملية النقد الأدبى ، نجد أنها تحد من انفراد الذوق بالحكم ، وتقلل من النظرات الذاتية وتأثراتها فى تقدير الأعمال ، أو قل انها تقوم بعملية ضبط للذوق وتثقيفه والارتفاع بأحكامه من حيز الذاتية الى آفاق الموضوعية ، ومن آثار ذلك اتسع الفكر النقدى وأوجد فينا شـــعورا بالاطمئنان ، ووقانا التباسا وابهاما بتحرى الوضوح ، وجعل الناقد أكثر جدية ، وليس معنى لجوئه الى العلوم فى بعض الأحيان هو وضع النقد فى قوالب جامدة ، ونظريات محددة ، وانما بقصد معاونة الذوق فى الحكم والتقدير ·

وعلى أدهم لا يطوف حول النص وانما يتخلله ويتغلغل الى قراره ، وينفذ من أغشيته الى جوهره ، ويسير بهدوء الى أقاصيه حاملا ذخيرة علمية وذوقا مهذبا ·

ويقول : « ان ذوقى ليس هو المرجع الأخير وان الأحكام قد تتناقض وان الأذواق قد تختلف ، وغاية ما يطلب منى أن أكون أمينا فى تقدير مايصح أن أسميه أفكارى أو انطباعاتى »[١٩] ·

---

(١٨) بين الفلسفة والأدب ·
(١٩) مجلة قافلة الزيت عدد سبتمبر أكتوبر ١٩٦٦ ·

تقدير النقد الأوربى

لم تكن اهتمامات على أدهم بالنقد العربى ، ومحاولة تقدير الجهود التى بذلت فى مجاله ، على مستوى اهتماماته بالنقد الغربى وبيان مذاهبه وعرض أفكاره وتحليل وجهات نظره · وقد عكست كتاباته فى النقد والجمال كثيراً من آراء الأوروبيين النقدية · وآرائهم المتباينة فى الفن ·

ويبدو أنه رأى أن يقرب وجهات النظر الأوروبية فى مجالات الأدب والفكر والفن لافتقار القاعدة العريضة من القراء اليها ، تاركا لهم النظر فى قضايا النقد العربى التى لن يبذلوا جهدا كبيرا فى تفهمها لمعرفتهم باللغة العربية وتاريخ آدابها ·

وقد كان واعيا لما يعمل · فهو يرى أن النهضـــات الأدبية ــ فى الغالب ــ تأتى نتيجة تلاقى ثقافتين متباينتين ، ويذهب الى أن التمسك بالثقافة القومية وحدها يجعلها محصورة الفكر ، ضيقة الأفق ، بعيدة عن أنموذج الكمال الانسانى · ومن أجل تكوين ثقافة رصينة لابد من انماء جذور الماضى ، وتطعيمها بالأفكار الحديثة ، والاتجاهات المعاصرة ·· ويرى « أن الأفكار والنظريات والمذاهب المستوردة من الخارج لا يكون لها تأثير بليغ فى توجيه أفكارنا ، وبناء ثقافتنا اذا لم تصهر فى مراجل حياتنا الجائشة المضطربة ، وتطبع بطابعنا الخاص »(١) ·

لذلك لا أرى أن توجهه الى الغرب يعد من باب التعصب له ولرجاله وثقافته · فضلا عن أن الفكر والفن والأدب والنقد عندما تتجرد من النزعات المحلية ، والعصبيات القومية ، تصير جهودا انسانية يفيد منها الناس مهما تكن مشاربهم وغاياتهم ·

وفى اعتقادى أنه أفاد من هذه الناحية ، فقد ثقف كثيرين وجعلهم يطلون من خلال فصوله ومقالاته على مذاهب الأوروبيين ، وآرائهم فى مجالى الحياة ، وعوالم النفس ، وممالك الفنون ·

النقـــد فى روســـيا

ومن مظاهر افادته فى هذا المجال أنه أطلعنا منذ وقت مبكر على النقد الروسى · فى وقت كانت فصول النقد الأوروبى المعروفة فى مصر

---

(١) ألوان من أدب الغرب ط المعارف ·

فى مطالع القرن العشرين وبعيد ذلك لا تتجاوز ـ فى الغالب ـ نقاد غرب أوروبا من أمثال ماثيو ارنولد ، وكويلردج ، وهازلت ، ولسنج ، وسانت بيف ، وتين ، وغيرهم من أعلام النقد الغربى ٠

وكانت فكرة المصريين ـ وربما غيرهم فى البلاد العربية ـ عن النقد والنقاد الروسيين قليلة أو منعدمة ، وقد تولى أدهم ايضاح النقد الروسى والاسهاب فى ذكر أعلامه منذ عام ١٩٢٢ ويعد هذا اضافة الى ثقافة العربى ، وزادا وفيرا يقويه على الرحلة فى حدائق الفن ، وعوالم الفكر ، وتطعيم الذهن بآراء الغير تمهيدا لانتاج جديد ٠

وثمة فائدة أخرى ، فقد كان المعروف لدينا من أدباء الروس كتاب الرواية من أمثال تورجنيف وتولستوى ودستوفسكى وقلة من الشعراء مثل بوشكن ولرمنتوف ، ولكن فكرتنا عن تقدير هذه الأعمال من خلال نقادهم ، لم تكن واضحة ، فاذا جاء كاتب مصـــرى أو عربى لابراز هذا الجانب النقدى فانه يكون قد سد فراغا ، وقرب مفهوم الأعمال الأدبية الروسية الى قراء العربية ٠ ومن ثم فالفصول التى كتبها أدهم عن النقد الروسى عملت على توجيه الأنظار اليه ، ولم تعد نظريات النقد والجمال تؤخذ من أوروبا الغربية فقط ، وانما من شرقها كذلك ٠

ويبدو لنا أن أدهم كان مأخوذا بالثقافة والتاريخ الروسيين فكتب عن بعض فلاسفتهم مثل برديائف ٠ وقياصرتهم مثل بطرس الأكبر ، وكتاب الرواية والشعراء على نحو ما أشرنا ، وقد قاده ذلك الى ملاحقة نقادهم فقدم لنا فى مجلة « الرجاء » اعتبارا من ١٩٢٢/٤/١٣ سبعا من المقالات تحت عنوان « فن الجمال فى الورسيا » كان آخرها ما نشر فى ١٩٢٢/٩/٧ تناول فيها تاريخ النقد فى روسيا من خلال أعلامه الكبار ، وتتبع الأطوار التى مر بها ، والآداب التى أثرت فيه ، وأهم النظريات النقدية والجمالية التى فاضت عنه ووجهت الأدب الروسى ٠

ويذهب على أدهم فى دراسته الى أن الروس لم يظهر عندهم مذهب خاص لفن الجمال قبل سنة ١٨٣٠ فقد كان أدباؤهم يقلدون الآداب الأجنبية ويحتذون بالفرنسيين على وجه الخصوص ٠

ويعتبر أدهم أن « لومتسوف » (١٧١١ ـ ١٧٦٥) أب للأدب الروسى فقد نفح الأسلوب الكتابى بعوامل لاتينية ، وروض اللغة ، وهذب حواشيها ، ووضع أساس البناء لمن يأتى بعده ٠ وفى عهد الاسكندر الأول عملت مدرسة « ارزماس » على تهديم بقايا الفن المدرسى القديم وعفت على آثار التشبه والخضوع للأدب الفرنسى ٠ ثم أخذ المذهب الرومانسى يغمر الأدب الروسى بعد أن أدخله « كارامارين » (١٧٦٥ ـ ١٨٢٦) الذى درس فى غرب أوروبا ، ويرى أدهم أن روايات ورســـائل هذا الكاتب « لها قيمة تعليمية كبيرة اذ نبهت احساسات رقيقة وأيقظت حاسة الجمال فى نفوس كانت من قبل لا تدرى عنها شيئا »(٢) ٠

---

(٢) الرجـاء فى ١٩٢٢/٥/٤ ٠

ثم أخذ يتحدث عن « زوكوفسكى » الذى أدخل المذهب الرومانسى بطريق الترجمة ونقل كنوز الشعر الألمانى والانكليزى الى الأدب الروسى ، وأعلى نموذج للشعر عنده هو الشعر الرومانسى بما يصف من بساطة الريف والشوق الى الجمال ، والاستمتاع بحالات الحزن ، والجمع بين الاكبار للأهواء القوية العادية والفضائل الأخلاقية المتناهية فى الكمال والثبات فى الحب والصداقة ٠ وقد تمذهب بهذه الآراء أكثر كتاب عصره ومنهم بوشكن ٠

وتطرق الى » نادجادين » (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦) الذى لم يكن ينظر الى الاحساس بالجمال كمجرد عامل فى الطبيعة البشرية بل كان يراه عاملا عميق التأثير فى التربية والحياة ، مخالفا بذلك القائلين بأن الأدب نوع من التسلية يعين على تحمل آلام الحياة(٣) ثم انتقل الى ستاكنفيش الذى تأثر بفلسـفة « كانت » و « هيجل » وكان من تلاميذه بلنسـكى (١٨١١ ـ ١٨٤٧) ٠

ويعد أدهم بلنسكى أمير النقاد الروس(٤) والموجد الحقيقى للنقد الروسى ، ويرى أن منزلته فى الأدب الروسى مثل منزلة سانت بيف فى الأدب الفرنسى ولسنج فى الأدب الألمانى ، وقد تأثر بشلنج وأخذ من هيجل فكرته فى أن كل شىء موجود متفق مع العقل وبنى عليه أن من واجبات الانسان ألا يتسخط الحاضر بل يعمل على التوفيق بين نفسه وزمنه ، وكان يؤثر الفن المتجـرد ، ولكن أفكاره تغيرت بعد ذلك فأخذ يتأمل الواقع والحقيقة ٠ ومن آراء بلنسكى ترجيح جانب الصورة على جانب الفكرة ، ويرى أن عظمة الفكرة لا تكفى فى التدليل على جمال الفن بل قد تجعله معرضا للشكوك ، ورأى أن المثل الأعلى للفن هو امتزاج الفكرة بالصورة وتوحيدهما ، ومن خلال هذا المفهوم انتقد طائفة من أشعار شلر لأن فكرتها لاتناسب القالب المصبوبة فيه ٠ وفى أواخر حياته أعلن انتهاء الرومانسية ورأى أن الفن يجب أن يعبر عن الحقائق والواقع بل نبذ استعلاء الصورة على الفكرة ، وصار يرى أن الفن الأكمل يجمع بين الفكر الرومانسى والقالب المدرسى ويقول أدهم « وبذلك صار موجد الطريقة المثالية التى سار عليها الكتاب فى منتصف القرن التاسع عشر جوجل ومدرسته والتى كانت تجمع بين طلب الحقيقة وملاحظة الحياة مع الانتباه الدائم لجمال الصورة » ٠

وهكذا انتقل بلنسكى من تجريد الفن عن خدمة أية غاية الى اخضاعه للحياة(٥) ٠

وعندما جاء ماجاكوف المتوفى عام ١٨٤٧ حاول التوفيق بين الفن للفن والفن للحياة ورأى أن عالم الفن ليس مقصورا على الجميل بل يشمل كل مايهم الانسان وفى الوقت نفسه يعتمد على مبدأ نفعى ٠ لأن الفن ليس

---

(٣) الرجـاء ١٩٢٢/٥/١١ ٠

(٤ ، ٥) صور أدبية لعلم أدهم ومجلة الرجـاء فى ١٩٢٢/٥/١٨ ٠

محاكاة للطبيعة وانما هو شديد الارتباط بمصالح البشر ، وكلما سمت المصالح ارتفع الفن(٦) ٠

وبعد موت بلنسكى وماجاكوف عاد الروس الى فكرة الفن للفن ، حتى ظهر حزب « محبى السـلاف » الذى كان من أبرز رجاله الناقد « جريجورجيف » (١٨٢٢ ــ ١٨٦٤) وكان يرى أن الفن الصادق كان ولايزال وطنيا وأن الشعراء هم أصوات الجماهير وألسنة القوميات ، وغرض الفن هو خلق صور رمزية لها شكل خاص يحمل خصائص قومية معينة والنقد السليم عليه أن يفسر التعبير الرمزى الخاص للمثل العليا فى الفن وايجاد علاقة بين الفن والأرض التى نبت فيها ، ويسمى جريجور جيف هذا النوع من النقد بالنقد العصرى تمييزا له عن نقد بلنسـكى التاريخى الذى يعتبر الفن نتيجة الحياة ولا يعده المعبر عن المثل العليا المسيطرة على الحياة(٧) ٠

وفى المقال السابع يتحدث عن تشرنسفسكى الذى يرى أن الجميل هو الحياة ، والكائنات الجميلة هى التى تذكرنا بالحياة وتعكس ظلها ، ويرى أدهم فى هذا الاتجاه أن الجميل فى الفن أقل حسنا من الجميل فى الحياة لأن الفن مهما قارب الأصل لا يساويه فجمال الطبيعة اذن اسمى واتم من الفن ، وهذا عكس ما ذهب اليه شوبنهور من أن وظيفة المبدع هى أن يكمل نقص الطبيعة ، وهيجل يرى أن جمال الفن اسمى من جمال الطبيعة لأنه وليد العقل ، والعقل وانتاجاته أسمى من الطبيعة ومظاهرها ٠ أما غرض الفن عند تشرنسفسكى هو أن يستجلب صورة الحياة دون أن يتفوق عليها ٠ ويرى أدهم أن هذا يخفض من قيمة الفن ولا يجعلنا نقدره أكثر من تقديرنا للصور الفوتوغرافية ٠ وقد أكد تشرنسفسكى فى مكان آخر من نظريته أن الفن ليس مقصورا على الجميل وانما يشمل مايمس مصالح الانسان فى الحياة ، ولذا فان الفرق بين العلم والفن فى نظره طفيف وهذا منشأ فكرته عن أن الفن وسيلة لترسـيخ الأفكار العلمية والسـياسية والفلسفية فى العقول ، وخلاصة رأيه أن الفن الجميل هو الصورة الصادقة الأمينة للحياة ٠ وقد مالت نظـراته بالروس الى النـاحية الواقعية فى الفن(٨) ٠

هذا تلخيص شديد لآراء النقاد الروس كما عرضها على أدهم ، وهى تبرز كيف تطور الأدب الروسى من تقليد الفرنسيين الى التأثر فى النقد والجمال بوجهات نظر بعض الألمان ، وكيف انتقل الروسيون من الرومانسية والأفكار المثالية الى الواقعية وربط الفن بالقومية السلافية ٠ ومن ناحية أخرى تظهر مدى ثقافة على أدهم وجده فى المطالعة وهو دون الثلاثين وتكشف عن اقتداره على نقل أفكار الروس ، ونقد بعض آرائهم فى تقدير الفن ٠ وقد طالب كاتب هذه السطور على أدهم بجمع هذه المقالات فى كتاب مستقل ، فقال : انهاتحتاج الى اعادة نظر وصقل ، وقد بقيت هذه

(٦ ، ٧) الرجـاء فى ١٩٢٢/٥/٢٥ ٠

(٨) الرجـاء فى ١٩٢٢/٩/٧ ٠

الدراسات فى « الرجاء » فلم تجمع فى أى من كتبه باستثناء واحدة ضمها كتابه « صور أدبية » عن بلنسكى • وعلى أية حال فقد ساهمت هذه الفصول فى تنويع مصادر النقد الأدبى والفنى وبخاصة فى وقت مبكر من القرن العشرين •

على أن أدهم لم يقطع صلته بالنقد الروسى على نحو ما نرى فى كتبه ، فقد خص تولستوى بعدة دراسات منها واحدة مستفيضة عن نظريته فى الفن حيث يذهب الى أن قوة الفن راجعة الى قدرته على العدوى أى أن الفن يبدأ حينما يعدى شخصا بالشعور الذى ينتاب المبدع ، وعندما يجعلنا نشـارك منتجه فى أحاسيسه ، أما قيمته فتتوقف على العواطف الدينية التى ينقلها ، ويركز تولستوى على أن فقدان اليقين الدينى أضـعف موضوعات الفن ، وأن الادراك الحسى الدينى متوقف على نمو الاخاء بين البشر وحب بعضـهم لبعض • وقد انتقد أدهم هذه النظرة ورمى تولستوى بالاسراف « فى اعتقاده أن العمل الفنى الصادق يستطيع جميع الناس ادراك قيمته والتأثر به » •

ونخلص من كل هذا الى أن على أدهم عرض ونقد الآراء النقدية الفنية للكتاب الروس • وفى العرض اجادة لنقل أبرز الأفكار ، مما يعكس اسـتيعابه لأعمالهم • وفى النقد ملاحظات وتوجيهات تكشف عن نظرته للنقد والجمال ، وتظهر قدرته على التعامل مع الموضـوعات الدقيقة ، والنظريات المتباينة ، وترفعه الى مصاف العارفين بقيمة النقد ، ومضمون الفن •

❀❀❀

النقـــد الأوروبى

والظاهر لنا أن المثقفين المصريين قد بهروا بالنهضة العلمية الأدبية النقدية فى أوروبا الغربية لما بيننا من صلات ثقافية ، من بينها البعثات العلمية المصرية الى بلاد الشمال ، كما أن قضايا العرب الوطنية والقومية كانت مرتبطة بأوروبا نتيجة السيطرة الاستعمارية ، وقد ساعد اختلاطهم بنا فى بلادنا ، وانتشار لغاتهم فى مدارسنا ، وتعلم بعضنا فى جامعاتهم ، وقرب المكان على تعلم لغاتهم والتأثر بآدابهم ، ونقل آرائهم النقدية •

فلا جرم بعد ذلك أن يردد كتابنا أسماء نقاد أوروبا وينسوا نقاد الروس ، وعندما كتب أحمد أمين كتابه « النقد الأدبى » اهتم بعـرض نظريات غرب أوروبا دون شرقها ، ثم جاء طه حسين وحسـين فوزى وغيرهما ليقولوا ان مصر جزء من دول البحر المتوسط ، وهذا يرينا مدى انبهارنا بالنقد الأوروبى الغربى •

ولم يكن على أدهم أقل من غيره اعجابا بالأدب الأوروبى ونقده •• فكتاباته عن النقـاد الأوروبيين معـرض كبير لمختلف الآراء والمذاهب والنظريات ، وهذا الثراء فى الأفكار النقدية التى نقلها وعلق عليها جعلنا

ننظر الى الانتاجات الفنية بمنظار معين ، أو نقومه من خلال فكرة واحدة مهما كان فيها من صواب ودقة ٠

وممن تناولهم أدهم بالترجمة والدراسة : تين ، سانت بيف ، جيل ليمتر ، أناتول فرانس ، بندكروتشه ، دى سانكتيز ، ماثيو أرنولد ، والزعيم الايطالى متزينى ، وكارليل ، وشوبنهور وسبنجارن وغيرهم ٠

وهذه الدراسات يضمها أكثر من كتاب نذكر منها « فصول فى الأدب والنقد والتاريخ » « على هامش الأدب والنقد » « ألوان من أدب الغرب » « صور أدبية » وغيرها من كتبه ٠

وفى تلك الفصول نرى المذاهب الأدبية والنقدية المتجانسة ، والاتجاهات المتعارضة ، والنظرات المتفرعة من نظريات ٠ ومن هذا مذهب « تين » الذى يرى أن العمل الأدبى ليس نتاجا فرديا بحتا وانما هو من خلق الجنس والوراثة والبيئة والعصر ، أى أن الخلق الفنى من نتائج القوى الاجتماعية ، فهو يؤسس مذهبه على نظريات علمية ٠ ويقابله مذهب « سانت بيف » الذى يميل الى الفردية والتأثرية فى النقد ويرى أن العصر والبيئة والقوى الاجتماعية لا تفسر لنا سر اختلاف الأدباء ، وتفوق بعضهم على بعض ، ويذهب سانت بيف الى أن كل شخص « يملك سرا خاصا به ، وهذا السر يمكنه من الاتيان بالخوارق والمعجزات » ويرى على أدهم أن تحرى الأسلوب العلمى والتزام الصرامة المذهبية أدى الى ظهور النقد التأثرى عند أناتول فرانس وجيل ليمتر ٠

وينقلنا على أدهم الى ناحية أخرى فى النظر الى الآداب والفنون عندما يتحدث عن المذهبين الاجتماعى والفردى ، فيعرض نظرية « شلجل » الذى يرى أن لكل شعب أدبا يعبر عن شعورهم ، ويستمد عناصره من خصائصهم القومية وتاريخهم ٠ وهذه الآراء جعلت الأمم تعنى بالآداب القومية لأنها تمثل الشعب وتعبر عن حياته وشخصيته ، ويقابله مذهب « هيجل » الذى حول مجرى هذه الفكرة الى الاتجاه الفردى ، حيث راح يبحث عن الشاعر فى الشاعر نفسه ، ولا يقف طويلا عند العصر والبيئة ، وجارى « هيجل » الألمانى ، دى سانكتيز الايطالى ٠ ثم ظهر مذهب جديد يآلف بين المذهبين الاجتماعى والفردى ، ويرى أنصاره أن النتاج الفنى الفردى لا ينظر اليه منفصلا عن عمل الجماعة ، ورفضوا قراءة التاريخ من خلال سير الأفراد الموهوبين فقط ، وهذا المذهب لا ينفر من الفرد ولا ينكر المجتمع ٠

وعندما يتناول أدهم « كارليل » الانجليزى كناقد أدبى يمهد لنظرته بطريقة جذرى واضرابه من النقاد الذين يعتبرون أنفسهم قضاة ، يحكمون على المؤلف بقانون مستمد من الكتاب المدرسيين ، الذين تأتى أحكامهم ثابتة وطيدة لا يصح التعقيب عليها ٠ أما كارليل فانه يرى أن النقد لا يصح الا من خلال التعاطف بين الناقد والمؤلف ويبيح للشاعر الطريقة التى تلائمه للوصول الى حقائق الطبيعة الانسانية وخصائص الأشياء ، ويلزم الناقد عند الحكم الا يخضع لنظريات ومذاهب وآراء

مسبوقة . أى أن كارليل يوسع الطريق أمام الناقد ولا يقيده ، والمؤلف عنده ليس متهما يحكم عليه بقوانين مثل طريقة جفرى .

وعلى هذا النحو يمضى على أدهم فى شرح المذاهب النقدية ، مبصرا قارئه بخصائصها ، وتداخلها ، وتناقضها ، وأعلامها ، ومزاياها وعيوبها ، مع التوطئة الموضحة ، والتعليق المنير ، والتقويم الرشيد ، من خلال معرفة واعية بالتيارات الفكرية ، والشخصيات الرائدة .

وقد أثرت هذه الآراء — التى نقل أدهم قسما منها — فى الحركة النقدية والأدبية ، فرأينا توسعا فى نظم الملاحم والحديث عن الســـير الشعبية ، وهى تأتى فى اطار نظرة الأديب الى التراث القومى المعبر عن روح الأمة وشخصيتها ، ولاحظنا اتجاها نقديا فى الدراسات الشعرية يتعمق فى نتاج الشاعر ليعرف مسارب نفسه ، وتوجهات ذهنه ، ودلالات قوله من شعره ، كما أن النقد تغيرت نظرته الى الابداعات الأدبية ، فراح يقومها فى شىء من النزاهة والتعاطف ، وتفهم طبيعة الأشياء بعد أن كان فى فترة من الفترات عبارة عن هجاء مر ، وانتقاص من ملكات المبدع ، ووضحت عناصر الزمان والمكان والقوى الاجتماعية فى الدراسات الأدبية والنقدية ، ولم يعد النقد غنائيا بحتا يعتمد على الذوق وانما صار فى كثير من فصوله موضوعيا .

موقفـه من الفنون

الشـــعر

أكثر ما يعجب به على أدهم من الشعر ، وتتأثر به خلجات فؤاده ، وينشط ملكاته الشعر الذى نطوى على أفكار ومعان .

وهو لا يغفل عن الصياغة الجميلة ، والتعبير الصافى ، والاتقان الفنى ، ولكنه مع ذلك لا يجعل غايته من قراءة الشعر التذوق الأدبى فقط ، والتمتع بجمال الصور فحسب ، وانما يبحث عن الشاعر « الذى يعبر عن أعمق الحقائق ويلمس خفايا القلوب ، ويطوف بنا فى مشـــارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى آفاق فكرية فسيحة »(١) .

ولا يكفى أن يكون الشاعر موهوبا مزودا بالأحاسيس المتفتحة ، ماهرا فى ضبط الأنغام ، ولكن لابد له من « عقل كبير يضىء الظلمات ويكشف المخبئات ، تشد من قوائمه فى أكثر الأحايين ثقافة عالية وعلم وافر »(٢) .

وهذا يعنى أن أدهم لا يهدهده رنين موسيقى الشعر ، ولا يصرفه سحر أسلوبه ، ولعب صوره ، وسمو أخيلته عن عمق المعنى ، واتساع الفكر وبعد النظر فى شئون الحياة . ومن ناحية ثانية يظهر أن الفن لا ينهض على الموهبة فقط ، وانما على المعرفة ، والقدرة على الكشف ، وارتياد مجالى الروح والتغلغل فى مسارب القلب ، وايتاء ظواهر الكون حقها من التأميل والتفكير .

والشعر الجيد ليس هو الشعر الذى ينبض به قلب الشاعر ، ويعبر عن وجدانه ، وينقل احساسه فقط . وانما هو الشعر الذى يتأمل .. ويتعرف .. ويتعمق الحياة . أى أن للشعر وظيفة فكرية الى جانب وظيفته الفنية الترفيهية ويعده أدهم « وسيلة من سائل فهم الحياة والاحســـاس بها »(٣) .

---

(١) بين الفلسفة والادب .

(٢) المصدر السابق .

(٣) فصول فى الأدب والنقد والتاريخ .

لذلك فعلى أدهم يضيق بالشعراء الذين جاء نصيبهم من العقل والفكر غير موفور ، ويبدى اعجابه بأبىتمام لأن « فكره اليقظ الجوال أقوى من عواطفه » . ويرى أن أبا تمام من أصحاب « الملكات العقلية الممتازة » وانه « هو الباحث الدارس المتبصر المتأمل وليس الكاهن فى المعبد والمحراب ينطق بالأسرار المغلقة »(٤) .

وعلى أدهم هنا وهو يساير نفسه ، ويكشف عن نوازعها الفكرية ، يقوم بدور المفكر الرشد الذى يخطط لثقافة باقية نافعة لا تذهب بددا بذهاب وقتها ، فهو يصرفنا عن شعر يأتى من عالم الالهام المجهول ، ومن وراء الوعى والحس ، ويثير الشعور ، ويدغدغ النفس بأنغامه السحرية الشجية ، ويسجل خفقات الفؤاد بعبارة شفيفة ، الى شعر همه انقاذ الحس ، وتنبيه الضمير ، وايقاظ وعى خدرته كلمات شاعرة ناعمة فاستنام فى ظلها ، واستطاب جوها الغائم الحالم . ان أدهم يرمى الى الافادة من ملكات العقل فى البناءالشعرى لتنوير فجاج الحياة ، وتعميق احساساتنا بمباهجها ومفاتنها .

والشاعر الذى يمتد ذكره ، وتتناقل الركبان خبره ، هو الشاعر الذى يتداخل شعوره فى تفكيره ، وتظهر عواطفه وخوالجه من خلال عقله . والناس بطبيعتهم أقدر على نقل الأفكار من نقل الأحاسيس . وكثيرا ماتذكر فى جلساتنا معنى بيت من الشعر اذا عجزنا عن استحضاره كما نظمه صاحبه . ومعنى هذا أن الشعر المتضمن فكرة ألصق بالأذهان . وأقرب الى الوجدان لوضوحه ، وامكان تمثله ، وترديده وقت حاجته ، أما الأحاسيس فانها كثيرا ما تتسم بالغموض ، وترتبط بفرد معين ، أو بحالة عارضة ، لذلك ينسى الناس أشعار الأحاسيس بعد اعجابهم بها لحظة ولادتها . ولعل هذا يفسر لنا سر بقاء عدد من الشعراء على ألسنتنا دون غيرهم . أو يعلل لنا لماذا يكون هناك عدد من الشعراء أكثر حضورا فى الحياة من رصفائهم !! وفى احدى مراحل التقويم يكون تقدير الفن بقدر مايتضمن من رؤى وأفكار . لأنه أسهل على المرء تفهم المعانى ووزن الآراء من تقدير الأحاسيس الذاتية المبالغ فيها ، والحكم على المشاعر الخاصة التى ضخمها الشعراء بصور خيالية .

فليس غريبا أن يبدى أدهم اعجابه بشعراء من أمثال المتنبى الذى تتجلى عبقريته « فى القدرة الفائقة على استخلاص الحكمة فى ايجاز ملحوظ ولمح الحقائق والبدائه بغير منطق متصل الحلقات مترابط العلل والأسباب »(٥) .

ونراه يدافععن مقولة ماثيو أرنولد : « ان الشعر هو الحياة وأحسن الشعر هو الذى يقدم لنا أكمل تفسير للحياة الانسانية » بقوله : « ان الشعر لكى يكون من الطراز الأسمى لا يكفى أن يرفه عن النفس أو أن يكون حافلا

---

(٤) على هامش الأدب والنقد .

(٥) مجلة الكتاب العربى عدد ابريل ١٩٦٥ .

بالموسيقية مترعا بالأخيلة · بل يلزم أن يعيننا على تفسير بعض مشكلاتنا الانسانية ومسائلنا الأخلاقية · ولست أقصد بالأخلاق هنا المعنى الضيق المحدود وانما أقصد بها قوة الشعر على أن يرتفع بنا فوق سفاسف الحياة وصغائرها »(٦) ·

وهو بهذا يجعل الشعر أحد مصادر المعرفة الدائمة لا أحد وسائل المتعة العارضة ، وهو رأى غير حاسم فى مجال الفنون ، وهناك من يقول : الفن للفن ، ومن يقول بأن الفن للحياة ، ولكنى أرى رأيه ، وانظر بعينيه · لأن الفن ــ مهما قلنا فى سموه ــ نوع من الصنعة وضرب من العمل · والعمل لابد له من دلالة ومغزى والا صحت نظرة ماكس نورداو الى الأدب التى يذهب فيها الى أن الأدباء مجموعة من المرضى ،و مما يساعد على بقاء أدبهم أن قراءهم مرضى مثلهم · وعلى هذا فاشتمال الشعر على صور فنية ، وجمال لائح ، وخيال مشرق لا تكفى لأن يكون الشعر عظيما ، وانما لابد أن تكون هذه المظاهر أردية لفكرة جالت فى ذهن الشاعر وجاشت بها مشاعره ·

ومع أن على أدهم يكبر الشعراء الجادين العبقريين المحدقين فى الحياة بعين فاحصة ، الا أنه مع ذلك لا ينكر الجانب الفكاهى المستملح فى الأدب ، لأنه أحد مجالات الروح · وقد عرض لألوان من الشعر الهجائى الساخر المضحك الذى تندر به بعض الشـــعراء ضد بعضهم من أمثال البحترى وأبى تمام والمتنبى · فقد قال فيهم الهجاؤن شـــعرا يؤثر فى حيثيتهم بعض الشىء · ومع تقبل أدهم لبعض الهجاء « الذى لا يجرح الشعور ولا يسيىء الى الذوق المهذب نصقول » يستنكر الفكاهة التى تستهدف التنقص والتحقير ويرى أن هذا اللون من الفكاهة يدل على «ضعة الروح ، وكلبية المزاج »(٧) ·

ويعرض صاحب الترجمة فى أحد بحوثه لشعر أبى نواس ومجونه ، وينتقص من قيمة شعره لأن الجانب الروحى ضعيف فيه · ونظرا لأن أبا نواس مطيع لشهواته ، منقاد للذاته لم يوازن بين عاملى الزهد والمتعة فى الحياة(٨) ومن ثم عاب عليه أدهم أفراطه فى التهتك وتفـــريطه فى القيم ·

ولكن هذه الصورة التى يرسمها على أدهم لشعر أبى نواس (وأبو نواس يساعد على رسمها فى حقيقة الأمر بما صاغه من شعر ماجن) يعدل فيها باحث آخر ، حيث يفاجئنا عبد الرحمن صدقى برؤية مختلفة لأبى نواس وشعره قوامها أن أبا نواس كان نحيل البدن ضعيف البنية ، ومن ثم لم يكن انغماسه فى اللذات لحيوية عارمة فيه ، أو غلبة الغريزة

---

(٦) على هامش الأدب والنقد .

(٧) كتاب لماذا يشقى الانسان .

(٨) كتاب : على هامش الادب والنقد .

الجنسية عليه ، وانما كان هذا فجورا فنيا أكثر مما هو فجور جنسى(٩)
وقد ساعد ولعه بالمجاهرة فى الاقبال على اللذة والتهويل والمبالغة على تكوين الصورة التى عرفت عنه ومن علائمها أنه من فرســـان الجنس ، منكب على الشهوة ، ملازم لها ٠

ولعل أدهم رأى فى الأدب المكشوف ساقه فى ثنايا بحثه عن شعر أبى نواس يذهب فيه الى أن الرجل العفيف يجد فى الأدب المكشوف متنفسا لجانب اللهو الراقد فيه ويقول ان الأدب المكشوف « يمكننا من أن نحتفظ بالتوازن فى نفوسنا بين عاملى اللذة والزهد دون أن نتعرض للأخطار الكامنة فى كليهما وأمثال هذا الأدب قد يجعلنا نعيش فى هدوء وسكينة داخل قيود الحضارة وتقاليد المجتمع »(١٠) ٠

وهذا يعنى أن قراءة الأدب الجنسى تمثل رذيلة الرجل المستقيم ، ومطالعته تعصم الانسان العفيف من الانحراف العملى ٠ ولو كان أدب المجون نافعا الى هذا الحد لتوسعنا فيه حماية للمواطنين ، ولما عابه أحد ٠ والرأى عندى أن هذا اللون من الأدب مثير للشهوة ، مدمر للقيم ، فضلا عن أنه يفتح الطريق للاباحية والاستهتار ، ويهيىء النفس للخطيئة والانحراف ويغرى بالفسق ، وعلى أحسن الفروض يملأ الأدب المكشوف الذهن بالخيالات الجنسية ، ويوسوس فى صدور الشباب ٠

●●●

القصـــــــة

عندما سئل على أدهم عن رأيه فى أعلام القصة المصرية ، أجاب بأنه لم يقرأ شيئا من نتاج القصاصين المصريين أو العرب ٠ وعندما أبدت المذيعة دهشتها من تصريحه هذا ٠ علق على دهشتها بأقوال فحواها أن القصة العالمية الأوروبية شغلته عن القصة المصرية والعربية ، وأضاف قائلا : انه فى الوقت الذى كانت تتكون فيه القصة المصرية والعربية ، وتأخذ فى النهوض والتقدم على يد أعلامها ، كان هذا الفن قد استقر فى أوروبا ، وصـــــار له أعلامه الكبار . وروائعه الخالدة ثم أفادها بعدم جدارته بالاجابة عن سؤالها ٠

ومهما يكن من تقصير على أدهم فى قراءة الرواية المصرية ، ومتابعة الأعمال القصصية ، فانه أشبع عواطفه ، وأمتع ذهنه بالقصص القصيرة ، والروايات الطويلة عند أعلامها المشهورين فى أوروبا شرقا وغربا ٠

وقد زود أدهم المكتبة العربية بطائفة كبيرة من القصص القصيرة ، انتخبهـــا من مختلف الآداب الأوروبية ٠ وله فى ذلك ثلاث مجموعات مترجمة هى : « صديق الشدة » و « الخطايا السبع » و « فيرانا أو الهارب

---

(٩) أبو نواس قصة حياته فى جده وهزله لعبد الرحمن صدقى ٠
(١٠) على هامش الادب والنقد ٠

من الخطيئة » عدا ترجمته لرواية « رينيه » لشاتوبريان · وما ترجمه من قصص فى كتابه « ألوان من أدب الغرب » ·

وهذه القصص تمثل مجموعة كبيرة من الكتاب الأوروبيين فى مختلف البلدان فنلتقى فيها مع كوبيه ، أناتول فرانس ، بول بورجيه ، يوتيه من الفرنسيين ولوديج تيك ، وفاسرمان والأخوين جرم من الألمانيين ، وكوزستلانى المجرى ، وفيلكس دورمان النمسوى ، وستكوكز البولونى ، وسلمى لاجريف السويدية وهيلمار برجمان (سويدى) وليو باردى وبيراندللو الايطاليين وغير ذلك ·

أما الكتاب الذين وقف عندهم كثيرا فهم رواد الأدب الروسى من أمثال تولستوى ، وترجنييف ، ودستوفسكى ، وكريلوف ، وسلوجب ·

وكان يقدر الأعمال القصصية لسومرست موم الانجليزى ، وللكاتب لفكاديوهيرن الذى ترك وطنه انجلترا وهام باليابان واعتنق البوذية ، وتزوج من فتاة يابانية ، ودرس فى جامعتها ، وألف أقاصيص جميلة وأساطير عجيبة ·

وهذا العرض السريع يرينا الى أى حد كان على أدهم مولعا بالقصة الأوروبية ، ومن فرط شغفه بالقصص البديعة كان يسطر لمعظم كتابها تراجم يطلعنا فيها على جوانبهم الفكرية والفنية الأخرى وعلائقهم بعصرهم ، بل يلخص لنا فلسفاتهم فى الحياة ويجمل اراءهم فيها من خلال قصصهم · وعلى سبيل المثال يرى أن قصص بيراندللو ورواياته تدور حول «الازدواج» ويفسر هذا الازدواج بقوله : « ينشأ ازدواج دائم بين الحياة نفسها والصورة التى يكونها الانسان عنها ، وبين الواقع فى ذاته وفكرة الانسان عنه »(١١) ·

أو يوجز الطريقة الفنية التى يتبعها بول بورجيه فى قصصه فيقول عنه :

« اشتهر بالرواية النفسية التى تقوم على وصف العواطف وتحليل المشاعر ، وتعارض الرواية الواقعية أو الطبيعية التى تعمد على الوصف الخارجى ، ويغلب على بورجيه التعمق فى التحليل ونفاذ النظر واستنباط النظريات الفلسفية والآراء الاجتماعية »(١٢) ·

وعلى هذا النحو يمضى أدهم فيترجم قصة أو أكثر لمؤلف ، ثم يسطر فى ايجاز سيرة صاحبها ، ثم يعرض مذهبه فى الحياة ، وطريقته فى كتابة فنه ، بعد هذا يدلج القارىء الى القصة وقد أحاط سلفا بمعلومات وافية أو شبه وافية عن كاتبها ، فلا يعوزه ايضاح ، ولا يحتاج الى ارشاد ·

وقد قدم على أدهم دراسات شافية لبعض الأعمال الفنية الشهيرة

---

(١١) فيرانا أو الهارب من الخطيئة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
(١٢) فيراتا .

مثل « دون كيشوت » لسرفانتس ، « ومدام بوفارى » لجوستاف فلوبير ، و « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « الاخوة كارامازوف لدستوفسكى . وأظهر فيها المضامين الانسانية والافكار الفلسفية ، والآراء الاجتماعية التى نهضت عليها هذه الأعمال ، والمذاهب الفنية التى سارت فيها والتى تصلح لتفسير مناهجها .

ولكن على أية أسس ترجم على أدهم هذا الكم الكبير من القصص الأوروبى ؟ ولماذا كانت هذه القصص من مختاراته ؟ هل لانها أيقظت احساسه ، وامتعت وجدانه ؟ أو ترى أنه راقه مافيها من فكر ؟ ويجيب أدهم بقوله : « لم أتحر أدب المتعة وحده ، ولا أدب الفكرة وحده ، وانما الأدب الذى يجمع الخصلتين ، وكل قصة منها لا تخلو من فكرة فلسفية ، او وصف حقيقة نفسية ، ولكنها معروضة فى الثوب الملائم ومصبوبة فى قالبها الخاص بها »(١٣) .

ولا ينكر على أدهم ما ترمى اليه القصة من تسلية وترفيه ، ولكنه ينكر الفن الذى يقدم « المتعة الرخيصة المبتذلة »(١٤) ويرتضى القصة التى تقدم « المتعة القيمة النفيسة » . لذلك فهو يرحب بالقصة التى تعرض وجهة نظر خاصة بالكون أو تفسر العلائق الانسانية ، وتملأ العقول بالصور والمرائى . ونضرب مثلا بقصة « فيرانا » لمؤلفها ستيفان زفايج ، فهى تكشف عن الفلسفة الانسانية الحزينة عند مؤلفها وتظهر موقفه من الحياة ومشكلاتها . « وبين لنا السر فى موجة الشك من العدالة الانسانية وترجيح غلبة الأثرة على الطبائع البشرية التى طغت على نفس زفايج وكيف كانت تعيش فى نفسه المشكلات التى صارعها فرويد وهاجمها تولستوى »(١٥) .

فعلى أدهم هو . هو . لا يقنع من الفن بالترف واللهو ، والتفكه الرخيص ، واللذة العارضة ، وانما يبحث عن الفكر فى الفن ، وعن حلول لمشكلات الحياة ، ويستبطن القصة ليصل لمدلولها ، من غير استهانة بجانب المتعة وامتلاء الشعور .

ويحاول المترجم له أن يربط بين حياة القاص أوالروائى وعمله الفنى، ويرى أن القاص يفيد من تجربته فى الحياة فى تصوير الواقع الانسانى . ومن هذا ماحدثنا به عن دون كيشوت لسرفانتيس يقول : « وقد جرب سرفانتيس الفقر والحرمان ، وتجشم الصعاب ، وركب الأهوال واستهدف للأخطار ، وعرف السجن والتشريد ، وعانى الجوع والجروح، ومن هذه التجارب الأليمة المرة أفاد هذا الفهم للحياة النفاذ الهادىء الساخر . وهذا الفهم الساخر هوأساس هذه القصة الممتعة النادرة»(١٦) .

واذا كان أدهم يلمح الى مدى افادة الروائى من حياته فى هذه

---

(١٣) مقدمة الخطايا السبع .

(١٤) فيراتا .

(١٥) فيراتا .

(١٦) صور ادبية .

وتضمينه مشاهد من مشاهداته فانه ينتصر أيضا لرأى جوستاف فلوبير الذى يرى أن الأدب يجب أن يكون « غير شخصى » أى موضوعى وواقعى فيذهب الى أن التجرد وعدم التأثر من مستلزمات الواقعية ، ولكن هذا لا يعنى أن يحبس الكاتب مشاعره أثناء الابداع الفنى الروائى ، ويحذر من اطلاق هذه المشاعر ، لأن تدفق مشاعر الروائى فى رواياته يعد تدخلا يغير الصورة التى يحاول تصويرها(١٧) .

وفى كلام على أدهم ما يبرره لأنه لو تدخل المؤلف فى كل قصصه فستتكرر شخصيته ، وأفكاره وانطباعاته . ولكن مع ذلك فانه من العسير أن يتجرد الكاتب عن فنه ، وحياة الكاتب جزء من الواقع الاجتماعى الذى يعبر عنه ، أى يقتبس منه . ومما لاشك فيه أن ثقافة القاص وتجاربه ومؤثرات أخرى تتسرب الى فنه ، ألا يرى معى القارىء أن بعض قصص دستوفسكى مثل « الجريمة والعقاب » وغيرها تشتمل على صور مما رآه أو وقع له أثناء سـجنه أو نفيه الى سـيبيريا ، وقد قال همنجواى عن تولستوى : « لا أعرف من كتب عن الحرب أحسن من تولستوى »(١٨) وذلك لأن تولستوى ينتمى الى أسرة عسكرية ، فضلا عن كونه محاربا حيث شارك فى حروب « القرم » ومعارك « سيباستوبل » .

ولكن المغالاة فى تدفق المشاعر الخاصة ، والواقعات الذاتية فى الأعمال القصصية والروائية يفسد الصور الاجتماعية ، والمواقف الواقعية واذا لم يكن بد من افادة المرء من تجاربه ، فان كبح جماح الشخصية ، والحد من المشـاعر الخاصة من الزم اللوازم عند التأليف القصصى ، والا تحول الفن الى غناء ذاتى .

●●●

أدب المأسـاة والملهاة

لا تفيد كتابات على أدهم التى خلفها لنا عن المأساة والملهاة أنه قرأ المسرح باستفاضة وعمق ، على نحو ما قرأ الشـعر العربى والقصة الأوروبية . فما كتبه عن التراجيديا والكوميديا لا يخرج كثيرا عما طالعه عند نقاد الفن ، وفلاسفة الجمال ، ومنظرى الأدب . فقد عرض للمأساة والملهاة :

- من خلال النظرات القديمة لأفلاطون وأرسطو .
- وحاول أن يجيب على سـؤال هو : لماذا نؤثر أدب الحزن والمأساة على أدب التسلية والملهاة ؟ »(١٩) .

ومع أن كلمتى مأساة وملهاة أقرب الى المسرح . الا أن عبارته فى

---

(١٨) الرواية الروسية فى القرن التاسع عشر . د. مكارم الغمرى . سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت .

(١٩) مجلة قافلة الزيت عدد مارس/ابريل ١٩٧٢ .

سؤاله تفيد المسرح وغيره من الوان الأدب · أى انه يجعل من المأساة والملهاة موضوعين عامين من موضوعات الحياة والانسان والفكر اكثر مما هما موضوعان من موضوعات المسرح والتمثيل ، وان حاول أن يكون كلامه أقرب الى التمثيل المسرحى ·

وقد قال مولوين ميرشنت : « وفى العصور الوسطى زال عن مصطلح التراجيديا كل ارتباط بفكرة العرض المسرحى · وتبين الفقرات المقتبسة من ديوميد وايزيدور وتشوسر انه صار ببساطة يطلق على نمط من انماط السرد القصصى »(٢٠) ·

فهل نظر أدهم الى المأساة تلك النظرة ؟ ربما ولكن لا أظن أنه يجهل مصطلحى التراجيديا والكوميديا وصلتهما الوثيقة بالمسرح · وان كانت اليهما قد اتجهت ناحية المضمون ولم تقف عند الشكل ·

وليس هذا غريبا من على أدهم فهو يهتم بالفكر وينقب عنه بقطع النظر عن الشكل الذى يرد فيه أو يقدم من خلاله ، لذلك جاءت معالجته لهذين الفنين معالجة فكرية لا مسرحية ·

وعلى أية حال فقد عرض المترجم له لرأى أفلاطون فى الفن اذ رأى الأخير أن الفن ملهاة كبيرة تستلزم وقتا طويلا ممن لا عمل لهم غير معاناته، ورأى أن فنون المحاكاة لاتخدم غرضا ولا تسر نفسا فهى تسلية ولعب · وقد رد أدهم على أفلاطون وذهب فى رده الى أن الانسان بعد خروجه من متاحف الفن أو مسارح التمثيل يشعر بأن « آفاق نفسه قد اتسعت وبأنه أكثر ميلا الى معاونة اخوانه البشر من الرجل المنحرف المزاج »(٢١) ·

أما المأساة فقد انتقدها أفلاطون واتهمها باثارة المشاعر ، واسالة الدموع ، وقد رد أرسطو على أفلاطون بنظرية التطهير ورأى أن المأساة تثير شعور الرأفة والخوف · وقد أثرت آراء أرسطو فى كثيرين ممن تناولوا هذا الجانب من المأساة ·

ورأى على أدهم أن تأثير الملهاة أو الأعمال الفكاهية المضحكة لا تترك أثرا باقيا فى النفوس ، ورأى أن مشاهدة المآسى أو مطالعتها أحب الى نفوسنا من الملهيات ويعلل لهذا بأن الأدب الحزين « هو الذى يثير نفوسنا ويفجر فيها ينابيع العطف والرحمة »(٢٢) وهذا الرأى فى المأساة أقرب ما يكون الى فكر أرسطو ونظرية التطهير ·

ويستعرض كاتبنا جملة من آراء المفكرين فى هذا المجال مثل مونتاج وبيرجسون وهوراس وايركرومبى · وفى نهاية المطاف يرى أنه فى

---

(٢٠) الكوميديا والتراجيديا . تأليف مولوين ميرشنت ـ كليفور وليتش . ترجمة د. على أحمد على ـ عالم المعرفة .

(٢١) مجلة العربى عدد مارس ١٩٧١ .

(٢٢) مجلة قافلة الزيت عدد مارس/ابريل ١٩٧٢ .

« اعجابنا بالمأساة تناقض يبعث على التفكير فمن طبيعة الانسان أن يتجنب الألم كما نتحاشى الوباء · لكن الواقع أن مشاهداتنا للمأساة لا تثير فى نفوسنا الشعور بالألم ، وانما تحدث عكس ذلك · وذلك لأن المأســـاة تصاحبها عقدة محكمة ، وشخصيات قد أتقن المؤلف تصويرها كما أنها مكتوبة بأسلوب أدبى لامع ويقوم بتمثيلها ممثلون يجيدون التمثيل وبذلك تذخر نفوسنا بالعواطف التى تؤثرها تلك العواطف التى تخرجنا من الحياة العادية المألوفة الى حياة شائعة ، واذا كانت المأساة تدخل الحزن على نفوسنا فانها فى الوقت نفسه تقدم لنا صورا من الحياة تسمو بنا وتقوى عزمنا وتزودنا بنظرات للحياة صائبة »(٢٣) ·

وقد استهان أدهم بالملهيات رغم أنها تعين الأخطاء وتتناولها بأسلوب شفاف ساخر ،و تعرض بعض الجوانب الاجتماعية بكلمات هازلة تكشف الصغار ، وتركز على مواطن الضعف والخسة باشارات لطيفة ، وتنتقد بعض الأوضاع السخيفة ، والتصـــرفات الحطيطة ، بالتقريع والتهكم ، وتضع الابتسامات على شفاهنا · وهناك أعمال أدبية هزلية ساخرة بقى تأثيرها ، وكثيرا ما يتحـدث النقاد والدارســـون عن مســـرح موليير الكوميدى ·

---

(٢٣) المصـدر السابق ·

خصائص أسلوبه

الأسلوب هو التعبير الذى يصف أو يصور ما تتميز به الأشياء بغية ايضاحها فى ذهن المتلقى • والتمهر فيه يعنى التدقيق فى ملاحظة الأشياء ، واستخدام الألفاظ المناسبة لتحقيق الغاية منه • ومن غايات الأسلوب : التأثير العاطفى ، والاقناع العقلى ، والاحاطة بالشىء الموصوف • فاذا جاء الأسلوب غامضا متعاظلا تضاءل دوره ، وذهب أثره ، وانتفى نفعه •

وقد سئل أبو تمام : لم لا تقول مايفهم الناس ؟ فأجاب : ولم لا يفهم الناس ما أقول • أى أن أبا تمام يكتب ما يكتب وينظم ما ينظم بأى أسلوب وعلى الناس أن يتبينوا المعـــانى الداجية فى تلافيف الألفاظ الوعرة ، والمحسنات البديعية التى لا تخلو من تكلف وتصنيع • والقارىء فى هذه الحالة لا يطالع ليفهم فى تلقائية ، وانما عليه أن يستولد الفكر • ويستوضح المعانى ، ويمضى فى رحلة شاقة ليتعرف على الآراء المستوره ألتى جالت فى خلد المؤلف •

ولاشك أن المؤلف الذى تغمض أفكاره ، وتعتم آراؤه ، وتستغلق على الأذهان معانيه يفقد عديدا من قرائه ، وربما يخسر كثيراً من آرائه ، لأن الناس يجتهدون فى الفهم ، فاذا أعياهم الأمر واستعصى عليهم الموضوع مع وفرة ثقافتهم ، تركوه الى غيره • والذنب فى هذه الحالة ذنب الكاتب لا ذنب القارىء • وعلى ذلك فوضوح الأسلوب من مزايا الكتابة لأنه يساعد على القراءة ، وملاحقة الأفكار •

غمـــوض الأســـاليب :

وقد اهتم على أدهم بقضية الأسلوب فى كتاباته ، وأوسع لها فصولا فى بحوثه لمناقشتها وعرض بعض الآراء فيها • ففى كتابه « لماذا يشقى الانسان » تناول أسلوب الكتابة عند شوبنهور وبسط جملة من خواطره فى التأليف والأسلوب • وربما يكون قصد أدهم من وراء اثبات آراء شوبنهور فى هذا الشأن أن ينبه الى دلالة أسلوب الكاتب على عقل المؤلف وأخلاقه ، ومن ناحية أخرى ينعى على المقلدين ويصفهم بأنهم يضعون أقنعة على وجوههم ، ويشير الى تحذير شوبنهور من محاولة الكاتب أن يبدو أكبر عقلا وأوسع علما من حقيقته ، وينتقد هؤلاء الذين يلفون أفكارهم الفارغة فى كلمات ضخمة ، ويلبسون آراءهم العادية ثيابا لامعة •

وفى كتاب أدهم : « فصول فى الأدب والنقد والتاريخ » يخصص فصلا عن الأسلوب ويجعل عنوانه « الوضوح والغموض فيما يكتبه الكتاب والشعراء والفلاسفة » . يعرض فيه لقضية ظهور الأساليب وخفائها من خلال أحاديث نقاد غربيين وناقد هندى عن ت . س . اليوت . فبينما يذهم كل من ايفور براون وهارولد لاسكى الشاعر اليوت بالغموض الشديد ، وأنه يدين بمذهب لا يوجب على الفنان أن يكون واضحا . يعرض على أدهم رأى الكاتب الهندى شاهانى ودفاعه عن اليوت ورده على ناقديه ويخلص على أدهم من كل هذه الآراء التى يعرضها وبخاصة آراء اليوت الى أن « الغموض قد يكون مصدره الرغبة فى التضليل والادعاء أو محاولة ستر الأغراض المقصودة لتفاهتها أو الخوف من اذاعتها ، وقد يكون سببه قصور التعبير ، وعجز الأداء ، وعدم تمكن الناشـــئين من الفن الذى يعالجونه ، وقد يكون سببه عمق الفكرة أو طرافتها وتأبيها على التعبير الواضح . والمنطق المفهوم ، وكثيرا ما يأخذ أنصار المذاهب القديمة فى الآداب والفنون على أنصار المذهب الجديد غموض تفكيرهم ، والتواء أساليبهم ، والواقع أن المجددين فى التفكير يحاولون أن يشقوا طريقهم فى مسـالك صـــخرية غير معبدة ، فغير عجيب أن يتحيف بيانهم شىء من الغموض . أما أنصار المذاهب القديمة فانهم يسيرون فى أرض معبدة مسلوكة واضحة المعالم لا تشتبه على سالك ، ولا يضل فيها أحد »(١) .

ويمضى أدهم فى استعراض آراء بعض الكتاب الذين اهتموا بأساليب الكتابة مثل سومرست موم الذى يذهب الى أن من أسباب غموض الكتابة أن بعض الكتاب لم يقولوا ما يقصدونه أو أن الكاتب غير متأكد من معناه لعدم وضوح الصور فى عقله ، أو أن الكاتب يقصد الغموض حتى يمنع الدهماء من الوصول الى أفكاره التى يكتبها ليفقهها نخبة من المثقفين ، ويبدى أدهم ارتياحا كبيرا لأســـلوب « موم » ويبين أن نصـــاعة كتاباته واتجاهه المباشر الى غرضه وطدت مكانته وساعدت على شهرته(٢) .

خصائص أسلوبه :

والتفات على أدهم الى كل هذا الكلام واهتمامه به يجعلنا ندرك أنه يقدر الكتابات الظاهرة ، والأساليب الواضحة ، وقد انعكس هذا على كتاباته فعمل على تخليص أسلوبه من التعقيد والالتواء والغموض ، ورأى أن مهمة اللغة هى ايضاح الأفكار وليست خفائها .

وعبارة على أدهم جادة جزلة تعرف طريقها الى موضـــوعها فى استقامة ورصانة ، فلا تستهدف السخرية اللاذعة ، أو تشتمل على النوادر

---

(١) فصول فى الادب والنقد والتاريخ .

(٢) المصـــدر السابق .

المضحكة ، ولا تنزع الى الفكاهة السطحية أو التهكم من العورات . كما أنها لا تجنح الى الرمز الغامض ، أو المجاز البعيد ، أو الخيال الغريب .

فالاسلوب الذى استخدمه صاحبنا فى كتبه مكتمل العناصر الفنية والادبية ، مشتمل على تفاصيل موضوعه ، كشاف للمشاعر النفسية ، دلال الى المعارف المختلفة ويصوغه من كلمات استوفت نصيبها من الفصاحة والبيان ، ويخاطب به العواطف دون أن يعمل على اثارتها ، ويتجه به الى العقل للاقناع .

ومن خصائص أسلوبه الأخرى وفاء الألفاظ بالمعـــانى ، واذا كان يرفض الاسهاب غير المفيد ، والتطويل الممل بغير غاية فانه ـ كذلك ـ ينأى عن الايجاز الشديد والتركيز المعيب ، لأنهما يعملان على افقاد القارىء لذة القراءة ، ويحولان دون انطلاق العقل .

وأسلوب أدهم رغم أنه يظهر الحقائق ويعرض عوالم الفكر الا أنه ـ كما يبدو لنا ـ له وظيفة جمالية ومظهر فنى . أذ انه يضـــفى على الموضوع مسحة من الجمال ، ويجعل القارىء يسبح فى الخيال . فالأسلوب ليس غايته نقل الأفكار وتصوير المشاعر بألفاظ ملائمة فقط ، وانما من مراميه امتاع النفس ، وملاعبة الحس ، بما يشتمل عليه من تنســـيق وترتيب ، وموازاة فى بعض الجمـــل ، وتنويع فى الألفاظ وتوفيق فى استخدامها .

وهناك كلمات تتجاور وتتكرر كثيرا فى كتابات على أدهم مثل كلمة : جلاء أو تجلية التى تجاور غالبا كلمة غامض فتأتى على هذا النحو : « تجلية الغامض » أو كلمة اظهار أو ظهور التى تقترن كثيرا بكلمة خافى أو خفية أو خفاء وتأتى على هذا النحو اظهار الخوافى أو ظهور الخفايا . ومثل هذه الكلمات التى تتكون منها العبارات على هذه الشاكلة تبين ميلا دفينا فيه لتحرى الحقائق ، والتوق الى معرفتها ، ولايتأتى هذا الا بجلاء الغامض وطرح الحجب لتظهر الأشياء الخافية .

والواقع أن تركيب عبارته يوضح طريقة فهمه للأشياء التى يتناولها ، أو عرضه للعوالم الفكرية والفنية والطبيعية التى يصورها بأدوات لغوية لها دلالات معنوية وشعورية . وقد تســاعده بنية اللغة ومفرداتها على ما يستهدفه ولكن تلك الألفاظ التى تلح عليه الحاحا مثل : الســـببية ، التوازن ، المجاهدة ، اطلاع ، طرائف ، ممتع ، عطف ، كشف ، بواطن ـ تأمل .. وغيرها ، تظهر انشغال ذهنه بما يحدث ومواقف نفسه منه .. وتصبح الكلمات التى تتكرر وتتردد فى كتاباته عادات تعبيرية لها رصيد شعورى ومخزون فكرى فى داخله أى أن اسلوبه يكشف لنا عن عالمى الشعور والوعى عنده .

أثر أســلوبه فى موضــوعاته :

ولقد استطاع على أدهم بأسلوبه ان يؤدب الفلسفة ويحيلها الى قطع

أدبية حسنة الصياغة ، سافرة المعانى . دون أن تنال ظلما على قلمه ، أو تقصر فى أداء رسالتها من خلال أسلوبه ٠ فصار القارىء لا يمل من مطالعة كثير من آراء شوبنهور ونيتشه وهيجل وغيرهم ٠ والفلسفة من العلوم التى ينفر منها عديدون لكثرة ما يستخدمه فيها الفلاسفة أو مؤرخو الفلسفة من مصطلحات تحتاج الى تفسير ، وعبارات غامضة ، وصياغات معقدة ٠ فجعل أدهم عبارته الأدبية فيها تعبر عن مستدق معانيها ، وعمق فجاجها فى سهولة واسماح ٠

ونفس الشىء يقال عن التاريخ ، وان كان أقل غموضا من الفلسفة ، فقد اشترط أدهم على المؤرخ أن يكون عنده « المقدرة على التعبير وقوة الوصف والتمثيل » ، لذلك فاننا نظفر من كاتبنا بأسلوب زاخر بالصور للوقعات التى يعرض لها ، والمشاهد التى يصفها الأمر الذى يجعل العصور الخالية ظاهرة مجلوة ، والماضى الداثر باهر المعالم ، وطيوف الشخصيات ماثلة للعيان ٠

وقد تناول الشعر الذى يبدو لنا غامضا وعلق عليه ووضح أغوارا فيه واستخلص قيما منه ، وعرض نتائجه فى أسلوب رقراق فضفاض حافل بالموسيقى والطلاوة ، وما ارنان الفاظه فى تعبيره الا شعر من الشعر ٠

تأثره بالتراث :

والأسلوب الجميل الخلاب لم يفارق على أدهم ، فى جميع كتاباته ، مهما كان الموضوع جادا أو جافا أو علميا ٠ وحتى فى النقل من لغة الى لغة جاء أسلوبه مكينا رصيا ، نهاضا بالمعانى ، حمالا للصور ، وكأنه يؤلف بالعربية ولا يترجم عن الانجليزية ٠ ولا يدانينى شك فى أمانة أدهم وهو يترجم من لغة الى لغة ، وقد رفض أكثر من مرة أن يوقع بصحة ترجمات تصرف فيها المترجمون وخرجوا على النص خروجا حادا ٠ ولكن فى ترجماته هو – وهو ينقل بعض المواقف – يأتى بشىء من كلام العرب البليغ يناسب ما قاله الكاتب الأجنبى ومن ذلك قوله فى ترجمة قصة « حلم نورسكا » لصاحبها « لافكاديوهيرن » ، « وليس يدفع فتاة من أسرة شريفة الى الزواج باختيارها من رجل غامض الشأن ليس له فى الحياة نصيب ولا خيل عنده ولا مال »(٣) فعبارة لا خيل عنده ولا مال جزء من بيت عربى يقول :

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

أو قوله فى ترجمة قصة « فى الصومعة » لأناتول فرانس » : « وانى لأدانيها سعادة لأنى مثلها خالى البال غافل عما مضى ومايتوقع »(٤) فان المقطع الأخير من العبارة مأخوذ من بيت للمتنبى يقول فيه :

---

(٣) مجموعة قصص الخطايا السبع .

(٤) المصدر السابق .

تصـــفو الحيـــاة لجاهل ولغـافل
عمـــا مضـــى منهـا وما يتوقع

ولا تخلو ترجماته من عبارات مماثلة يقتبســـها من تراث العرب ويضعها فى محل كلمات أخرى للكاتب الأجنبى لوفائها بمراده · ولكنها لا تمثل نوعا من الخروج الحاد عن النص يصل الى حد التشـــويه أو التأليف ·

ومن يتتبع أسـلوب أدهم يجد آثار المحفوظ من القـــرآن والأمثال ونمثل لكل من هذه بمثل واحد منعا للاستطراد ·

فمن تأثره بالقرآن قوله فى مجال حديثه عن تولســتوى : « كان يخفض جناح الرحمة لمن حوله »(٥) ·

ومن تأثره بالأمثال الشعبية قوله : « وقد يبالغون فى الحادثة البسيطة والأخبار العادية ويضخمونها ويهولون بها ويخلقون من حبتها قبة »(٦) ·

ومن تأثره بالشعر الحديث قوله : « كثيرون من الناس تطيح بهم تلك الأزمنة وتلقيهم من دهرهم صابا وعلقما »(٧) فالعبارة الأخيرة مأخوذة من بيت للشاعر عبد الرحمن شكرى يقول فيه :

رمى الله فى عينيك بالســـهد والعمى
ولقاك من دنياك صـــابا وعلقمـــا

وهكذا تتسرب الى أسلوبه جمل مقتبسة ، وتتسلل إليه خلســـة ، وتسعفه بها ذاكرته من محفوظاته أثناء الاشتعال النفسى والتوهج الذهنى ·

وخلاصة القول ان مؤلفات على أدهم ضاحية الأسلوب ، مشرقة الصياغة ، مفعمة بالأمثلة والشواهد ، وفى هذه المواكب الحافلة بالأحداث التى يعرضها ، والأقوال التى يثبتها يتقدم قارئه وقد هان عليه الفهم ، والتأمت أمامه أشلاء الموضوعات ، وتماسكت شوارد الأفكار ، فى تناسق جميل ، وتجانس يكسب أسلوبه قوة ، فيمضى فى القراءة مستمتعا بحسن الفهم · ويستعذب أسلوبا بليغا جزلا يكمل صـــوره الأدبية والنفسـية والتاريخية ويتمم لها روعتها ·

---

(٥) الوان من أدب الغرب ·
(٦) الجمعيـات السريـة ·
(٧) مقالة التفسير الجمالى للتاريخ ـ مجلة يوليه ١٩٥٨ ·

القسم الثالث

□ التاريخ

- في فلسفة التاريخ
- الكتابة التاريخية وتطورها
- العالمية والقومية في الدراسات التاريخية
- منهجه في كتابة التراجم التاريخية
- نظراته في أبطال التاريخ
- الفكر السياسي

فى فلسـفة التاريخ

شغفنا بدراسة التاريخ الانسانى فى شتى صوره ، وهالنا ما قرأنا عن تصرفات الانسان فى سيره مع الزمن ، ومدارجه فى الحياة منذ مهدها، وجهاده فى سبيل العيش ، وحروبه من أجل الاستعلاء والاستحواذ ، وممارسة الأنشطة الفكرية والفنية التى تمهر فيها لاظهار قواه الذهنية والعاطفية ·

وقد قاد بعضنا هذا الى النظر فى أحداث التاريخ وأعمال الانسان ولما كانت هذه الأحداث والأعمال لا تأتى المؤرخين الا من خلال الكتب التاريخية أو المتصلة بحياة الانسان ورحلته فى المكان والزمان ، فان المؤرخين أخذوا فى تأمل المادة التاريخية المكتوبة أو المنقولة اليهم بواسطة كتاب الماضى ، بهدف نقد الروايات القابلة للنقد ، أو التى لا تستقيم مع الفكر الانسانى ، أو تجافى معطيات العصر والبيئة ، وذلك من أجل تصويب المادة المنقولة ، والنظر فيما يصح منها لتفسير ما وقع ، واستنباط الخلاصات والنتائج ·

وأخذت الدراسات التاريخية تتسع وتطول لتتناول أبعاد التاريخ وصناعته وتاريخ تدوينه ، ومناهجه ، والتغلغل فى نفوس أبطاله ، وعوامله الروحية والمادية ، وجوانبه الوضعية والمثالية ، وألوان الحضارات ودوراتها ومصايرها ، وتقدير الأعمال ووزنها بميزانى الضرورة والحرية، أو وضعها بين الجبر والارادة ، والأحكام المختلفة على سير التاريخ ونعته بنعوت منها التقدم والانتكاس والاعادة ، وغير ذلك مما عرف لدينا بفلسفة التاريخ بعد اتساع نطاقه ·

وعلى هذا ففيلسوف التاريخ لا ينشىء فكرا ذاتيا محضا ، وانما ينشىء فكرا من أحداث الماضى وأعمال البشر ، أى أنه يستند الى معطيات التاريخ المدون ليكون نظرة خاصة تفسر الفعل التاريخى وتعين له اتجاهات، وتضعه فى أنساق فكرية · أو بعبارة أخرى أنه يملى ما يتجلى له ويتحصل فى ذهنه بعد دراسة وتمحيص ، وتقليب مستدق الأمور ، ووزن الأفعال والشخوص ·

واذا كان الفيلسوف يتأمل الطبيعة ويتجاوزها الى ما وراءها ، ويأتى بعد تأملاته بأفكار تعين نظرته الى الوجود وتفسر ظاهراته ،

مستعينا بعقله وحدسه وحسه ، متمهرا فى توليد أفكار من أفكار ، وتكوين نظريات من نظرات فان فيلســـوف التاريخ يوظف المعطيات التاريخية ، ويتخذها كمقدمات حيث ينفذ من الداخل الى الخارج ، ويفسر الحاضر فى ضوء الماضى . ويمنح الحياة معنى من خلال توالى أحداثها ، وتتابع دوراتها ، واقامة بناء نظرى عام من خلال رؤى خاصة .

وربما تكون آراء فيلسوف التاريخ ونظراته أكثر مصـــداقية لانه ينتزع رؤيته من معارف واقعية ، ويستند الى تجارب انســـانية متنوعة وكثيفة ، والحكمة التى نستخلصها من واقعة تاريخية ماثلة محددة المعالم أوضح من مبدأ نصل اليه من تصورات لظواهر فى الوجود تتسم بالغموض وتحير الأذهان . ومن ثم فان بعض الفلسفات قد يغشاها الوهم ويخلخلها القصور فى التصور . لذلك فان التباين فى مذاهب الفلاسفة أكثر منه فى نظريات المؤرخين الفلسفيين ، ولا يعنى هذا أن الفلسفة التاريخية لايعتورها الخطأ ، ولا يتسرب اليها الشك ، فان ما تجىء به مرهون بصحة الأخبار وزكانة دارس التاريخ ،و نضج الحس التاريخى عنده ، ومدى وعيه بدورات الحياة ، وخصائص الأشياء ، وطبائع البشر .

واذا كانت الفلسفة تتخذ من الثوابت موضـــوعها ، فان النظريات الفلسفية التاريخية مرتبطة بتاريخ الانسان المتغير ، واعتقاده المتجدد . ومن ثم فانها تتطور وتتبلور تبعا لترقى نظر الانســـان الى الوجــود ، وتصوراته المختلفة له ، وتوالى أعماله ، وهذا يعكس أنه لا مفر من قراءة التاريخ ومتابعة حلقاته ، وفلسفة أحداثه .

العـــوامل التـــاريخية :

وفى مجال فلسفة التاريخ أعمل على أدهم عقله فى أحداث الماضى ليفسرها ويعللها ، ويقيم رابطة بينها ، ويستعلى على جزئياتها النافرة ليشملها بنظرات منطقية توضح مسارها .

وقد شغلته العوامل التاريخية التى تعمل فى التاريخ ، وتوجه أحداثه، وتفسر أطواره . وقد اختلفت وجهات النظر فى هذه العوامل ، وثار حولها جدل صـــاخب ، وتعددت الآراء فيها ، فهناك من قال بأن الفرد هو أهم العوامل التاريخية وفسر التاريخ تفسيرا بطوليا مثل كارليل ، وهناك من رد حركة التاريخ الى الجماعة أو الأمة فدرس التاريخ من خلال الحضارات التى أنجزتها الأمم فى فترات زمنية ، فلا يعنى بفرد معين مهما كان تأثيره، وانما يوجه اهتمامه الى النظم الاجتماعية ، والتضامن بين الأفراد داخل المجتمع . وثمة مقولة عن العوامل الميتافزيقية ، فقد ذهب هيجل الى أن الروح الكلى أو المطلق هى التى تسرى فى الأحداث ، وأن أبطال التاريخ وسائل لعظمة الروح التى لا تكشف عن نفسها الا من خلال الجدل أو الصراع أو الديالكتيك ، وهناك من قال بالقوى المادية والعوامل الاقتصادية مثل ماركس ، ولا تعدم عوامل أخرى مثل عوامل البيئة ، والأفكار الدينية وغير ذلك .

الشخصية الانسانية :

أما على أدهم فانه يرى أن الشخصية الانسانية هى المرجع الأول والأخير فى أحداث الحركة التاريخية[1] وهو على هذا النحو يجعل للانسان الأثر الأكبر فى توجيه التاريخ ، ولعله يرد على أنصار « الحتمية » والقائلين « بالضرورة » عندما يبين أن الانسان لا يجلس هادئا صامتا ليتلقى توجيه التقاليد ، ويستسلم لتيار الأحداث ، ويرى « ان للانسان نصيبا من حرية الارادة لا يمكن انكاره ، واذا غالينا فى انكاره سقطت من فوق كاهل الانسان التبعة الأدبية » وينفى أن يكون الانسان آلة مسيرة ، أو جمادا مسلوب الحركة ، عاجزا عن التفكير واصدار الرأى ٠ ويسلم على أدهم بأن الانسان واقع فى شبكة أحداث عصره ، ولكن مع ذلك يملك أسباب التحرر من تلك الشبكة ، وأنه غير مقيد بالحدود المضروبة حوله ٠ ولم يفت أدهم ـ وهو يصوغ نظرته فى الشخصية الانسانية ـ أن هناك مشكلات وآثارا من الماضى ، وظروفا شائكة تملى على الانسان الأحكام ، وتفرض عليه الشروط ، وتكبله بالقيود ، الا أنه ـ مع ذلك ـ يرى أن « ارادة الانسان فى مستطاعها أن تناقش تلك الشروط وتنقض تلك الأحكام »[2] ٠

واعتقادى أن الناس طرا ليسوا من فصيلة واحدة ، أو فى مرتبة واحدة ، حيث تختلف امكاناتهم الذهنية ، وتتبادين مقوماتهم الشخصية والنفسية ، حتى طبقات الملوك والخلفاء نجد منهم المتسلط الجبار الذى لا تلين قناته ، ولا تفتر همته الا نادرا مثل جينكيزخان ونابليون وهتلر ، ومنهم الضعيف الخجول المنزوى الذى لا يقاوم أو ينازل اذا حم القضاء ، وجاء الطوفان مثل الخليفة الأندلسى هشام الثانى بن عبد الحكم المستنصر حفيد عبد الرحمن الناصر الذى خلع أكثر من مرة ، ومات أكثر من مرة وانتهى الى مصير غامض مجهول ٠

ولكن مع كل هذا فان كل بناء وهدم فى الحياة من صنع الانسان ، حتى الكوارث الطبيعية يحاول الانسان أن يخفف من آثارها ، وبمضى الوقت يحيل الخراب الى عمران ٠

واذا سلمنا بأن لكل انسان دورا فى الحياة ، فانه من باب أولى التسليم بأن الأفذاذ العبقريين ، والقواد الراسخين هم أكثر من غيرهم تأثيرا فى مجرى الأمور ، وتغيير الأوضاع السائدة ، وتحقيق الأفكار التى يتطلعون اليها أو يتطلع اليها أبناء أممهم ٠

لذلك تطلع أدهم فى دراساته لفهم الشخصيات التاريخية وتوضيح أدوارها ، واتبع فى هذا المجال عدة خطوط أبرزها :

- تقديم الشخصية من خلال أعمالها ، وسرد مفرداتها المهمة ذات الدلالة ٠

---

(١) مجلة العربى عدد سبتمبر ١٩٦٩ ٠

(٢) المصدر السابق ٠

● ثم محاولة تقدير هذه الأعمال ، والحكم عليها مستندا فى ذلك الى منطق الزمان الذى وجدت فيه الشخصية ٠ والأحوال العامة المختلفة لبيئته وعصره ٠

● وفى هذا المجال يستعين بأقوال المترجمين والمؤرخين ، وايراد بعض الاشارات والعبارات التى قيلت فيهم ٠ وليس هناك ما يحول دون التعليق بالتأييد أو التفنيد لتلك الأقوال ٠ وهذه الخطوط المتداخلة تعين وجهة نظـره ، وتكون موقفه من الشـــخصيات التى تناولها بالدرس والترجمة ٠

العمـــل والحـــدث :

ولكى يتعمق أدهم فى فهم الشخصية الانسانية ، وتمثل أدوارها فى الحركات التاريخية راح يفرق بين الأعمـال والأحـداث فذهب الى أن « الأحداث تقع بدون تدخل الارادة البشرية ٠ أما الأعمال فانها ترجع الى ارادة الانسان وتفكيره واختياره ، وميدان التاريخ هو أعمال الانسان ، والمؤرخ لايعنى بالأحدث الا فى حدود تأثيرها فى أعمال الانسان المقصودة، وهذا التفريق بين الأعمال والأحداث مرده الى فكرة حرية ارادة الانسان فى اختيار الغايات وتحديد الأهداف ، ومباشرته للأعمال طبقا لاختياره ، وطوعا لارادته ، واذا لم تتم الأعمال بارادة الانسان واختياره فانها تعد فى هذه الحالة من قبيل الأحداث » ٠

وهذا التفريق بين العمل والحدث انما هو تفريق بين حرية الارادة وقوانين الطبيعة ، فالطبيعة لها أحداثها وظواهرها الخارجة عن نطاق الفعل الانسانى ، والفعل الانسانى منوط بالقدرات العقلية التى تبرر الفعل والغاية منه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى مرهون بالارادة الانسانية التى تدفع اليه وتتمه على نحو ما ، وعلى هذا لا يوفق صاحبنا بين حرية الانسان وقوانين الطبيعة الا عندما تؤثر الطبيعة بأحداثها فى الانسان وأفعاله ٠ أى عندما تتدخل النواميس العليا فى سير التاريخ وحركاته ٠

وهذه النظرة تجافى ــ فى بعض الوجوه ــ نظرية « كانت » الذى يذهب الى أن أعمال الانسان تبدو وكأنها صادرة عن ارادة حرة الا أنها فى الحقيقة تحقق « هدف الطبيعة المجهول » أو « أن الطبيعة تحقق أغراضها فى الانسان » ويسترسل كانت فى مقولاته ليصل الى أن العناية الالهية وراء كل فعل انسانى يبدو لنا حرا ٠ أى أن الفعل الانسانى هو وسيلة الطبيعة ٠ وهكذا يلاقى كانت على حد تعبير الدكتور أحمد محمود صبحى بين نظريتى التقدم والعناية الالهية(٣) ٠

وهكذا يجعل على أدهم التاريخ من صنع الانسان وتجاربه ، ونتيجة

---

(٣) فى فلسفة التـاريخ للدكتور أحمد محمود صبحى ــ مؤســة الثقافـة الجامعية بالاسكندرية ٠

لتدبيره وارادته ، وانه لا يتجاوز الزمان والمكان وامكانات الانسان ، وينأى به عن الفكر الميتافيزيقى والفلسفى . أى أن التاريخ عنده لا يعدو أن يكون تجريبيا وليس تجريديا . ولأنه يعتقد هذا أنكر أن تكون أعمال الانسان خاضعة للمصادفة العمياء . وفى هذا يقول : « والواقع أن المصادفة العمياء كما يتصورها بعض الناس ، ليس لها وجود ، ونحن نطلق كلمة مصادفة لنداري عجزنا عن تفسير بعض الأعمال والحوادث تفسيرا معقولا ، فحين يقول المؤرخ عن حادثة من الحوادث انها جاءت مصادفة بغير سابق تدبير فهو يعنى حدوثها خارج نتيجة السببية التى تشغل باله ، ونسيج التاريخ مكون من خيوط عدة ، ولكل منها حلقة وسلسلة من الأسباب ، وحينما يتقطع أحد هذه الخيوط يحدث ما نسميه بالمصادفة »(٤) ويضرب مثلين ليوضح رأيه ، فيرى أن موت الاسكندر المقدونى سنة ٣٢٣ ق.م ، ليس من قبيل المصادفة وانما من جراء الحمى ، وأن موت يوليوس قيصر كان نتيجة مؤامرة مدبرة .

ويخلص من كل هذا بأن « التاريخ هو سجل أعمال الانسان التى مكنته من القيام به ارادته ، وليس فيه مصادفة عمياء ولا ضرورة قاهرة وانما هناك أسباب تغيب عن علمنا »(٥) .

ونظرة على أدهم هذه ضرورية فى مجال فلسفة التاريخ ، لأن هذا العلم يقوم على تعليل الفعل التاريخى وذكر الارهاصات والملابسات لتمكين الانسان من فهم الأعمال ، وتزويده بأحكام العقل فى أخبار الماضى وواقعات الزمان .

ولأن أدهم ينظر الى التاريخ باعتباره فعلا انسانيا فانه ينكر التعليل بالمصادفات .

ومع ان التفسير بالمصادفة ليس علميا ، كما أنه ليس مقنعا لعدم ذكر الأسباب ، فانه أحيانا يريح الانسان فى حالات ضعفه ، وعند نزول الكوارث والملمات به ، وله فى هذا من الأفكار الدينية ، والمأثورات الشعبية سند كبير حيث تتحدث عن القضاء والقدر والحظ والغيب وما يقع فى الحياة دون سبب واضح معروف .

ومن ناحية أخرى فان المؤرخ المتفلسف يستخدم النقد أثناء تقويم المادة التاريخية ، سواء نقد الوثائق أو نقد التصرفات البشرية التى هى الأفعال ، فاذا نظرنا الى التاريخ باعتباره جملة من المصـــادفات ونتيجة للقدر والمقدر ، فانه فى هذه الحالة يجب أن نكف عن الانتقاد والاجتهاد ، لأنه من غير المعقول أن ننتقد الانسان فى شىء وقع عليه دون ارادة منه ، وليس فى وسع فيلسوف التاريخ أو أى انسان أن ينقد المجهول أو يصدر

---

(٤) انظر مقالة « الاحداث والأعمال » لعلى أدهم ـ مجلة الرابطة الاسلامية عدد يونيه ١٩٦٥ .

(٥) المصدر السابق .

حكما عليه . أما مايمكن قبوله فى حياتنا الدنيوية هو أن العقول تتناول المعقولات وتبحث فيها .

وعلى هذا يعتمد على أدهم الأعمال الانسانية وينكر المصادفات ، ويقبل الأحداث فى حدود تأثيرها على الانسان وأفعاله .

العوامل المادية :

وبالرغم من أن صاحب الترجمة يرى أن الشخصية الانسانية أهم العوامل التاريخية المؤثرة فى التاريخ الا أنه لا ينكر بقية العوامل بل يؤكد عليها كما هو واضح من كتابه « شخصيات تاريخية » . فلابد أن تكون هناك عوامل أخرى مساعدة للعامل الانسانى ومصاحبة له .

وانطلاقا من هذا المبدأ راح ينتقد كل تحليل تاريخى يتكىء على عامل واحد مهما يكن شأنه . فقد أنحى باللوم على البرت اشفيتسر الذى ركز اهتمامه على العامل الأخلاقى فى قيام الحضارات وتجديدها . ومع أن صاحبنا يأخذ بالعامل الأخلاقى ويعتقد فى صوابه ، ولكنه لا يعول عليه وحده لأنه ليس « فى عزلة عن سائر العوامل التى تشـــترك فى تكوين الحضـــــارة مثل الفنـــون الجميلة والقـــوانين والنظم الاقتصـــادية والسياسية »(٦) والصواب فى هذه القالة لائح لأن الأخلاق الحميدة ، والآداب الاجتماعية الرشيدة لا توجد حضارة مجيدة ، وانما لابد لها من مساندة الروح العلمية ، ونهضة الأمة فى النواحى الفكرية والفنية ، وميلها الى التنظيم وحب التنسيق والترتيب .

ويتنبه أدهم الى العامل الفكرى باعتباره من القوى المؤثرة فى مجرى التاريخ مثل الفكر الدينى ، والفكر السياسى ، والفكر الاقتصادى ، فيرى أهمية فى دراسة مناشىء ذلك التفكير الذى ساد فى عصر من العصور وتتبعه ، ويقول بأن الأفكار « لابد أن تتجسم فهى لا تسرى مستقلة عن الآخذين بها ، والأفكار نفسها نتيجة من نتائج الحركة التاريخية قبل أن تكون سببا من أسبابها ، وعلينا أن نستعين بالتاريخ ليفسر لنا مسيرة الأفكار وما طرأ عليها من تغيير »(٧) .

وهذا يعنى أن الفكرة مؤثرة فى التاريخ ومتأثرة به . وتأثر الفكرة بالحركات التاريخية هو التعديل فيها لملاءمة الأوضاع أو تغيرها .

أما عن العـــامل المادى ودوره فى التاريخ فقد نال من أدهم عناية كبيرة ، ولأن هذا العامل ارتبط بالماركسية - فى العصر الحديث - فان صاحب الترجمة وضع كتابين فى هذا المجال هما : « حقيقة الشيوعية » و « الاشتراكية والشيوعية » عدا كتاب « مستقبل روسيا » الذى قام بترجمته ومقالات عديدة فى الفكر الاقتصادى .

---

(٦) مجلة الكتاب العربى عدد يوليه ١٩٦٥ .

(٧) مجلة العربى عدد سبتمبر ١٩٦٩ .

ويذهب أدهم الى أن العوامل الاقتصـــادية لها أهميتها فى توجيه الحركات التاريخية ولكن التعويل عليها بمفردها ، أو اعتبارها العامل الوحيد المؤثر يجعلنا نقول ان الانسان « يعيش بالخبز وحده فى حين أن الأمر على نقيض ذلك ، فالانسان حقيقة لكى يعيش لابد له من الخبز ، ولا يتضمن ذلك بطبيعة الحال أنه لا يعيش الا بالخبز وحده »(٨) .

وقد اقتضت نزاهة على أدهم أن يبرز أثر العامل الاقتصادى فى التاريخ فراح يعدد جملة من فوائده ، ومن أقواله : « وللمؤرخين الماركسيين الفضل فى أنهم استرعوا نظر المؤرخين الى البناء التحليلى للتاريخ » وضرب مثلا بالصراع الذى نشب بين شارل الأول ملك انجلترا وكرومويل الزعيم السياسى ، بين فيه أن بعض المؤرخين فسر هذا النزاع بأنه عراك بين أفراد أفذاذ كل منهما يمثل طبقته ، ولكن الماركسيين جعلوا « المؤرخين يتعمقون فى أسباب هذا الصراع وينظرون الى الأســـباب الاقتصـــادية والبواعث المادية التى كانت متوارية فى الأعماق » وعاب على المؤرخين القدامى عدم احتفالهم بالمؤثرات الاقتصادية واهمالهم لها . ولكنه يحذر فى الوقت نفسه من الاسراف فى تقدير العامل المادى لأن ذلك يسوق الى الوقوع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه المؤرخون القدامى(٩) .

ويناقش على أدهم العلاقة بين الثورات والعامل الاقتصادى ويذهب الى أن المسائل الاقتصادية لها دور بارز فى معظم الثورات ، ويبين أن الضرائب كانت من جملة أســـباب قيام الثورة الانجليزية ، والأمريكية والفرنسية . ولكنه يلاحظ أن معظم البلدان التى اشتعلت فيها الثورات الكبيرة لم تكن تعانى عسرا ماليا شديدا ، وانما الحكومات هى التى كانت تعانى الضائقة المالية ولا تحسن تدبير الأحوال الاقتصادية . ومن جملة ملاحظاته أنه لا يشترط أن تنشأ الثورات فى المجتمعات المتردية اقتصاديا . لأن الحاصل أن الثورات الكبيرة ظهرت فى مجتمعات متقدمة اقتصادية . وان لم ينف وجود جماعات تشكو الظلم . وعند على أدهم أن الضيق الاقتصادى الذى تعانيه طبقة المحرومين ليس من العـــلامات الدالة على حتمية وقوع الثورة ، وانما تثور بعض الجماعات المستعلية اذا اعترض تقدمها فى الحياة عقبات كبيرة ، فتقوم بالدعاية فى المجتمع واستغلال الأوضاع السيئة واظهار الظلم العام(١٠) .

وهكذا يرد على أدهم الحركات التاريخية الى عدة عوامل ، ويجعل الانسان هو أهمها فى صنع التاريخ . ومامن شك أن أحداث التاريخ تؤكد انها نتيجة ائتلاف وتفاعل عدة مؤثرات ، وقد يكون العامل الاقتصادى أكثر فعلا فى فترة دون فترة ، وأشد أثرا فى بيئة غير أخرى ، ولكن لا يعول عليه فى كل زمان ومكان كما يقول الماديون . واننا ننطلق فى تفسيرنا للظواهر التاريخية من أكثر العوامل فاعلية مع الأخذ فى الاعتبار

(٨ ، ٩) المصدر السابق .

(١٠) مجلة الكتاب العربى عدد ديسمبر ١٩٦٤ .

باقى العوامل المؤثرة ، لأن تاريخ البشرية الحافل بالغرائب والطلاسم والمتناقضات لايمكن أن نستند فى تفسيره الى العامل المادى ·

وتتضح لنا روح النزاهة العلمية ، والمناقشة الموضوعية فى كتابات أدهم عن الشيوعية والعوامل الاقتصادية ، فهو لا يتهافت ، ولا يناقش فى عصبية ، ولا يكيل الشتائم بغير روية ، وانما يحاور بالمنطق ، ويخاطب العقل ، ويضـرب المثل ، ويذكر المثالب والعيوب لأنه أولا وأخيرا يعنى باظهار الحقيقة العلمية ·

التفســير الجمـالى للتاريخ :

التفسير الجمالى للتاريخ عنوان يبدو غريبا لأول وهلة ، لأننا نتساءل ما العلاقة بين الجمال والتاريخ ؟ ولكن اذا نظرنا مليا نجد ثمة رابطة وثيقة بينهما · فالحضارة شكل من أشكال الحركات التاريخية ، والحضـارة تتداخل فيها النظم الاقتصادية ، والأفكار السياسية ، والأنواع الأدبية ، والفنون الجميلة · فهى تكوين تاريخى يشتمل على كل هذه العناصر ، وهناك من أهتم بالنظم السياسية ، والنظريات الاقتصادية وهو يتناول حضارة من الحضارات أو عندما يقارن بينها ، وهناك من يدرس الآداب ويعنى بجماليات الفنون فيها بغية معرفة درجاتها وتطورها عبر الزمان · ويتسـاءل كيف بدأت ؟ ومتى كانت نقطة التحول فيها من البدائية الى الانطلاق والازدهار ؟ وأيها أسبق فى الظهور ؟ وهل يطرد ترتيب الفنون فى الحضارات بشكل موحد أو محدد ؟

وقد حاول دارسون كثيرون الاجابة على كل هذه الأسئلة ، وتعددت النظرات فيها ، وتكون من كل هذا ما أطلق عليه على أدهم التفسير الجمالى للتاريخ ، أى التقدير العقلى للجانب الفنى فى التاريخ ·

وتحت عنوان « التفسير الجمالى للتاريخ » قدم أدهم دراسة(١١) عرض فيها لآراء بعض أساتذة الحضارة وسجل اعتراضاته ووجهات نظره ·· ومن هؤلاء « بترى فلندرز » الذى رأى أن هناك تشابها ملحوظا فى تطور الفنون فى الحضارات المختلفة ، ورتب الفنون ترتيبا نوعيا وحدد أزمنة تحولها وانطلاقها · وعنده أن فن المعمار هو أسبق الفنون يليه النحت ثم التصوير ثم الأدب والموسيقى فالفنون الآلية فالعلم · ومن آرائه أن فن المعمار وفن النحت يسيران جنبا الى جنب فى جميع العصور ، ويحدد سنة ١٢٤٠ لتكون نقطة التحول فى فن النحت الأوروبى الى الحـرية والانطلاق وذلك لظهور تماثيل بامبرج (نحت) وكاتدرائية سـالسبرى (معمار) · وبنفس الطريقة يحدد أزمنة تحول بقية الفنون · وقد لاحظ أدهم أن التحديدات التى وضعها « بترى » لا تسندها الحقائق الواقعة ، ويضرب أمثلة بظهور كاتدرائيات لا تقل روعة عن كتدرائية سالسبرى أنشئت قبل التاريخ الذى حدده « بترى » مثل كاتدرائيات نويون ، وسان دنيس ، ونوتردام وغيرها ·

---

(١١) مجلة المجلة عدد يوليه ١٩٥٨ ·

ويعرض لآراء بول فاليجتى الذى ينتقد نظرية بترى ويرى تحديدات زمنية مختلفة لظهور الفنون فى الحضارات العديدة ويرتب الفنون على هذا النحو : المعمار ثم النحت فالتصوير · ويذهب أدهم الى أن تحديدات « ليجتى » وترتيبه لا تساير الحقائق ، ولا تطرد فى كل الحضارات فالأدب ازدهر فى حضارتى الهند والصين واليابان قبل ازدهار النحت والمعمار ·

ثم يتناول نظرية « لابارد » التى تقوم على أن فن الشرق فن معمارى وفن اليونان والرومان فن نحتى ، وفن أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى فن تصويرى ، وفن العصر الحاضر فى جوهره فن موسيقى · ويرى أدهم أن نظريتى ليجتى ولابارد تأثرتا بنظرية هيجل فى فلسفة الجمال والتى تظهر أن تطور الفن هو حركة تحقيق الذات فى سير التاريخ ·

ولا يفوته أن يعرض نظرية كومبارييه التى تثبت أن الموسيقى تتخلف دائما عن سائر الفنون فى التطور الاجتماعى ، ويسلط أدهم عليها آراء سوروكين التى تبين عدم أطراد تخلف الموسيقى فى الحضارات المختلفة ·

ويسجل أدهم رأيه فى هذا المجال ، فيربط بين الفن المعمارى والحالة الاجتماعية السائدة ، فمستوى المعمار مرهون بمستوى المجتمع · ثم يسرد خصائص فنى المعمار والتصوير ليصل الى أن العمارة تعكس النزعة الجماعية لأن الذين يقومون بالبنايات الضخمة جماعات عديدة وقد تستغرق جيلين أو أكثر ، وهى تظهر روح التعاون والنظام الكلى ، وتخاطب الجماعات لأن القلاع والقصور والمعابد يراها كثيرون · أما التصوير فيعكس النزعة الفردية والميل الى الحرية لأن الذى يقوم به فرد واحد ويطلعه على قلة من الناس · أمامن الناحية الفنية ، فان التصوير ــ كما يقول أدهم « فيه المظهر والوهم والخداع ومجرد الصورة ، ومن هذه الناحية ليس واقعيا ومن أجل ذلك كان فى جوهره لونا من ألوان المحاكاة » أما فن المعمار فانه لا يحاكى الطبيعة ــ كما يقول صاحب الترجمة ــ وانما يخلق حقيقته لأنه من حجر وأرض وصلب ويعبر عن الارادة وقوة التصميم وليس فيه زيف ولا خداع وهو الوجود والكينونة ·

واذا كان أدهم قد أجاد فى الحديث عن العمارة فان كلامه عن التصوير مضطرب ، فكيف يكون غير واقعى ، ولونا من ألوان المحاكاة فى وقت واحد ؟ ان فن التصوير يستند الى الواقع رغم ما فيه من خيالات وأوهام وابداع · والعمارة رغم انها من مواد الأرض وحقائق الحياة يتجلى فيها خيال الانسان وذوقه ، ومدى تحضره ، وغرضه ، وقدرته على تشكيل المادة الأولى وتحويلها الى فن جميل ·

وعلى أية حال فان أدهم يخلص من درسه الى أن الثقافة تكون « راسية القواعد متجاوبة النواحى فى المرحلة المعمارية » وتتسم بطابع الفردية والتأثرية والشذوذ فى المرحلة التصويرية · وهكذا تدله الثقافة الفنية على الحالة الاجتماعية السائدة فى المجتمع · ولكنه لم يحاول ترتيب الفنون وأسبقية ظهورها ، وأطلق أقواله من كل قيد يحدها · وقد يكون معه الحق فى هذا لأن المعارف المتيسرة عن الحضارات غير وافية ، فكل

يوم يظهر جديد من الآثار كان خافيا ، وتتكشف نقوش وكتابات قد تغير المفاهيم • بل كيف نستطيع الحكم على الفنون المختلفة فى الحضارات وقد باد منها ما باد ، وتهدم من آثارها ما تهدم ، وسرق وغرق واحترق منها شىء كثير قد يكون له دلالات أخرى تبدل فى أحكامنا •

ويلاحظ أن أدهم يربط بين الفن والجمال (مثل سانتيانا) فيتحدث عن الفنون باعتبارها المظهر الجمالى فى أعمال الانسان أو فى التاريخ مفترضا أنها تتضمن متعة جمالية • ومادام التاريخ يعنى بأعمال الانسان ، والفنون المختلفة من بين أعماله ، فان الفلسفة التاريخية تحاول التنظير لها وتحليلها واعمال العقل فيها ، وهذا هو التفسير الجمالى للتاريخ والبناء الفنى فيه •

الكتابة التاريخيــة وتطورها

الكتابة التاريخية أو صناعة التاريخ أو التأليف التاريخى علم يعمد فيه المؤرخ الى أدوات عديدة ليكتب موضوعا تاريخيا وافيا منظما صحيحا أو أقرب ما يكون الى الصحة والحقيقة والاستيفاء ٠

ومنأجل بلوغ هذا الغرض يمر المؤرخ بعمليات كثيرة ومهمة أولها وضع يده على المصادر المختلفة من كتابات ونقوش وآثار خاصة بالفترة التى يتناولها ، و يرتبها ترتيبا يفيده فى عرض موضوعه ٠

● وثانيها اعمال الذهن والافادة من الخبرة فى نقد هذه المادة وحسن فهمها وتقديرها ، وقد قال المعنيون بالكتابات التاريخية فى النقد التاريخى مالا يستوعبه هذا الفصل ، وأهم ما أشاروا اليه هو التأكد من صحة الوثيقة وقيمتها وبراءة كاتبها ، ومقابلة روايات على أخرى ٠

● وثالثها رأب الصدع ، وملء الثغرات أثناء البناء التاريخى الناتج عن نقص فى الوثائق ، أو غموض فى الحقائق ، وذلك بالاستنباط العقلى ، والاجتهاد الذهنى فى ضوء الأحداث والأفعال ، أو بالقياس الى المعلوم مع الحذر وعدم الاسراف فى الافتراضات أو اقامة أحكام جازمة عليها حتى لا تأتى الكتابات التاريخية ضربا من الكهانة ٠

● رابعها أن يكون للمؤرخ رؤية شاملة للحقبة التى يؤرخ لها ، أو للبطل الذى يتناوله ، أو الحدث الذى يعرضه ، وهذا يعينه على تفسير التاريخ من جهة ، وعلى تلافى أوجه القصور والنقص والخلل وربط أجزاء الموضوع والقيام بمتطلباته من جهة أخرى ٠

كما يجب أن يكون للمؤرخ خطة يتبعها فى تقسيم الموضوع وتفريعه ، وجعل بعضه يمهد لبعضه ٠ ولابد أن يكون له أسلوب علمى فى التوثيق والتحقيق والاستقراء والعرض ٠

وقد توفرت هذه العناصر فى كتابات على أدهم التاريخية وبخاصة التراجم الطويلة ، أو القصيرة التى ضمنها كتابيه « صـــور تاريخية » و « شخصيات تاريخية » أو الفصول التى ضمنها واقعات وأحداثا مثل « العقد الماسى » و « يوم الهاشمية » و « سقوط الدولة الأموية » ووقعة « الزاب »(١) ٠

---

(١) كتاب صـــور تاريخية ٠

فقد كتب أدهم هذه التراجم والفصول التاريخية بدقة بعد فحص ، وتضمنت أحكاما بعد تمحيص ونقد · ومن هذا حكمه على عزل قيس بن سعد والى مصر ، فقد رأى أنه من الأخطاء السياسية التى تورط فيها الامام على · فمن أجل اصدار هذا الحكم سرد أحداثا طويلة ، وحلل شخصية قيس وتفهم اتجاهاتها ثم ذكر النتائج السيئة التى ترتبت على عزله(٢) ·

ومع أن على أدهم يصدر الأحكام الا أنه لا يكثر منها حتى لا يقع فى اخطاء تاريخية ، ويؤثر عليها عرض الموضوع عرضا أمينا دقيقا ·· والعرض الجيد يفضى بنا الى حكم صائب · والمؤرخ الذى يعرض الأحداث والواقعات لا يصح أن يقال عنه أنه لا يعرف الأحكام ، أو أنه عاجز عن قولها وينبغى للمؤرخ ألا يقحم حكمه اقحاما ، بل عليه أن يجعل عرضه ينم على حكمه · لذلك فاننا نرى فى كتابات أدهم التاريخية العرض الشائق، والتصوير الرائع ، والحوار الكاشف لخفايا النصوص ، وكل هذا يذهب عنا السأم ، ويحملنا على تتبع الموضوع · وهنا يصير العرض التاريخى الجيد حكما مقبولا ويؤدى الى رأى معقول ·

والأمانة التى تحراها أدهم فى تسجيل الواقعات ونقل الأخبار ، وطرائقه فى التعبير عنها تعرفنا حجم الحدث بمقدار الأثر · فهو لا يهول فى الأمر الدقيق ، ولا يهون من الفعل الخطير ، وانما هناك تناسب بين المقدمات والنتائج ، وكأنه يعاير الأحداث ويقيس الأفعـــال بمعـاييرها ومقاييسها ·

ومما يتبدى فى كتابات أدهم التاريخية احاطته بالعلوم الاجتماعية ، المامه بكثير من تراث الانسانية من فنون وعلوم وآداب فهو دائم التمثيل لها ، والاسترشاد بها على نحو ما نقرأ فى كتابه « الهند والغرب » حيث يحدثنا عن لغات الهند ، وآدابها وأديانها ، والعوامل الجغرافية التى تحكمت فيها ، والأحوال الاقتصادية التى أغرت الانجليز بغزوها ·

ونظرا لميل المؤرخ الى استكشاف الماضى بعناصره السلبية والايجابية والبحث عن القوى الخافية فيه ، يلجأ الى تبين ما وراء العمل · وتقصى الأخبار السرية ، وتجاوز المعروف المألوف لا بقصد التضخيم ، ولكن بغرض اماطة اللثام عن الدفائن ، وصولا لأسرارها · وانطلاقا من هذا راح أدهم يبحث عن الجمعيات السرية ودورها فى البناء والهدم ، وتحريك المواقف ، واخراج المشاهد · فنراه فى كتابه « الجمعيات السرية » يعرض لتاريخ خفى يكمن خلف التاريخ الظاهر ، ويتناول جملة من هذه الجمعيات منها طائفة الاسماعيلية النزارية وجمعية الخناقين فى الهند التى أزهقت آلاف الأرواح ، وجمعية الجاردونا فى شبه جزيرة ايبيريا ، وجمعية الكامورا فى ايطاليا ، وجمعية « نادى موسل » الألمانية وغير ذلك من الجمعيات السرية التى تكونت فى الخفاء ، ومارســـت أعمالا أثرت فى حركات التاريخ ، وأنشأت لها درجات ورموزا ، وشددت التحذير والعقاب على الأعضاء ،

---

(٢) المصدر السابق ·

واتخذت من السراديب المظلمة أماكن لها لتحيط نفسها بالخفاء والسرية - ومما لاشك فيه أن هذه الجمعيات ترينا أن الأحداث الظاهرة وراءها أسرار خافية ، والتاريخ لا ينتظم ولا يكتمل الا اذا تماسك ظاهرة وباطنه واشتبكت أدواره ومراحله .

والكتابة التاريخية عند أدهم تأخذ شكلا فنيا . وتطبع بطابع أدبى ، فاذا كان ما يكتبه لحمته من التاريخ فان سداه من الأدب . فالأدب يعرض التاريخ فى أســـلوب شائق جذاب . والمؤرخ الذى تنقص أعماله قوة التصوير ، وبراعة الأداء تصير كتاباته التاريخية عبارة عن أخبار مجموعة، وأحداث معروضة لا تؤدى المهام الموكلة اليها . وفى هذا يقول على أدهم موضـــحا العلاقة بين الأدب والتاريخ . « وعلاقة التاريخ بالأدب والفن علاقة قديمة وصميمة ، والقرابة بينهما جد دانية ، بل هما توأمان حياتهما وازدهارهما فى الاقتراب والاتصال ، وفى تباعدهما وتناكرهما مايعطل نموهما وما قد يقضى عليهما معا »(٣) ومن ثم جاءت ديباجته واضحة محددة ، وصياغته مشرقة ضاحية ، وعبارته تصويرية عليها طابع الفن ، واننا حين نطالع أعماله نجد تاريخا وشاه بأساليب الأدب ، وأدبا حلاه بحقائق التاريخ .

تطور الكتابة التاريخية :

وقد عنى أدهم فى أعماله بتطور الكتابة التاريخية عبر حقب موغلة فى القدم . ويرى أن التدوين التاريخى ليس من المهام الميسورة ، وانما هو هبة « وثمرة من ثمرات الثقافة المستمكنة الأصيلة »(٤) ويذهب الى أن مجرد المشاهدة لا يكفى على تسجيلها وانما الأمر يحتاج الى رؤية صادقة ، ومقدرة على الوصف بعيدا عن الوهم والخيال والخرافة ، ومعرفة بقوانين الطبيعة وخصال البشر وسعة فى النظر . لذلك فالكتابة التاريخية جاءت فى مرحلة تالية لظهور الآداب والفنون ، وفى هذا يقول : « ان ظهور هومر فى الحضارة اليونانية سبق ظهور المؤرخ هيردوت بقرون عدة ، وفى تاريخ الأدب الايطالى نرى ظهور الشاعر دانتى قد تقدم ظهور المؤرخين مثل مكيافللى وجويكشارديني .. وظل المؤرخون الانجليز يتعثرون فى كتابة التاريخ حتى عهد شارل الثانى (القرن السابع عشر) وبعض الأمم القديمة وصلت الى مستوى عال من الحضارة وقصرت مع ذلك فى فن كتابة التاريخ »(٥) .

وكلام على أدهم لا يحتاج الى تفسير بقدر ما يعوزه التصور .. فالفنون والآداب لا تحتاج الى مناهج فى التدوين ، وربما يكون قد مضى عليها زمان طويل دون أن يعنى الانسان بتسجيلها لأنها تبتدع ـ فى معظم الأحوال ـ من أجل متعة مؤقتة ، أو انسجام ذاهب . وهى تعبر فى الغالب

---

(٣) المصدر السابق .
(٤) بعض مؤرخى الاسلام .
(٥) تاريخ التاريخ .

عن مزاج شخصى عاطفى · أما التاريخ فانه يحتاج الى عقل كبير مستوعب متفهم · وترتيب وحذر وقواعد ومناهج ، وتجوال ومشاهدة وسماع وجمع وثائق وقراءة آثار وتقدير مواقف ونقد وغربلة حتى يمكن تنسيق الأفكار العامة والاحداث المتوالية فى الزمن تمهيدا لاســـتنباط النتائج · وفهم العلائق بين الحوادث ، واستخلاص القوانين أو ما يشبه القوانين · كما أن مصـــدر الصـــعوبة فى الكتابة التاريخية يكمن فى تواصل ، الواقعات والاحداث ، وترابط المواقف والأفعال ، فلو فقدت مجموعة وثائق ولفائف خاصـــة بحقبة زمنية يترتب عليها حدوث هوة لا تملأ بالتكهن ، ووجود ثغرة لا تسد بالظن والتخمين · وذلك بعكس الفنون التى لو فقد جزء منها لا يحدث خلل كبير ، فضياع قصيدة أو لوحة أو قطعة موسيقية لا ينتج عنه اضطراب خطير مثل فقد الوثائق والمعلومات · لأن التاريخ مجاله مجموع أفعال الناس فى الأمة عبر الحقب أما الفن فهو فردى بطابعه وقد يناكر بعضه بعضا · لذلك فالكتابة التاريخية تشتمل على صعوبات كثيرة ومن ثم تأخرت عن الفنون فى التدوين والتنبه الى التسجيل ، ومن ناحية أخرى يترتب التأريخ على الفعل والحدث أما الفنون فقوامها الانفعال والتخيل والتعبير ·

ولأن الكتابة التاريخية مرت بأطوار عديدة ، فقد راح أدهم يؤرخ لبعض هذه الأطوار منذ أقدم العصور ويرى أن الشعر الملحمى والأشعار التى تتناول البطولة تتضمن عناصر تاريخية مشوبة بالأســـاطير لتعلق الانسان البدائى بالخرافة ونفوره من الواقع والحقائق · ويبين أن الكتابة التاريخية بمعناها المعروف اليوم كانت نادرة عند شعوب الشرق الأدنى فى العهد القديم · وبالرغم من تقدم الحضارة فى بعض بلدانه ووجود حوليات تاريخية ونقوش فانها لم تدون تاريخا حقيقيا · ولكنه يشير الى « مانيتو » الذى جمع حوليات عن تاريخ مصر القديمة ، وبيروسوس الذى دون تاريخ بابل ، ويلاحظ أن الوثائق التاريخية المتعلقة بقدماء المصريين والبابليين والأشوريين سجلت أنساب الملوك والحملات الحربية ، ويعيب عليها عدم ذكر الأسباب التى مهدت لوقوعها الأمر الذى جعل الكتابة التاريخية غير راقية المستوى(٦) ·

ثم يعرج على التاريخ عند الصينيين وتقدمهم فى هذا المجال ويأخذ عليهم عدم تكوين وجهة نظر عامة · أما اليابانيون فقد أجادوا التفكير التاريخى وتأثروا بالصين قبل ستمائة عام قبل الميلاد · وينعى على الهنود عدم تقدمهم فى الكتابة التاريخية لكثرة الشعوب الهندية وتنافر عاداتها وكثرة لغاتها وعدم وجود وحدة سياسية تجمعهما(٧) ·

ثم ينتقل الى التدوين التاريخى عند اليهود ويشير الى أفكار عزرا سنة ١١٥٠ م وفكرة تأليف موسى للأســـفار الخمسة ، ويقف عند رأى اسبنوزا القائل بأن سفر التكوين تعدد كتابه فى أزمنة مختلفة ويبين من خلال آراء الأوروبيين تأثر الديانة اليهودية بالأساطير البابلية واقتباس اليهود فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح من الفرس(٨) ·

(٦ ، ٧ ، ٨) تاريخ التـــاريخ ·

ويذهب أدهم الى أن الكتابة التاريخية عند اليونان والتى كانت جزءا من الحركة الفلسفية فى أيونيا اهتمت بتحرى الأنساب ودراسة أخلاق الشعوب · ويذكر هيكايتوس أول مؤرخى اليونان الذى انتقد الأساطير من أجل كتابة تاريخية علمية ثم يستعرض جهود كارون اللاميسكوس وديوينزياس الميليتى وانطيموكس السراقوسى وغيرهم ويظهر دورهم فى التمهيد لكتابات هيرودوت الذى عنى بتاريخ العلاقات بين اليونان وآسيا · ويعرض لتوكرتيدس المعاصر لهيرودت الذى سجل الحرب البليبوينسية بأسلوب علمى(٩) وكان نظيره فى هذا المجال بوليبيوس الذى تناول امتداد الامبراطورية الرومانية وتطور نظامها السياسى فى أربعين جزءا ولا يفوته ذكر كتاب التراجم من أمثال زينوفون وفلوطارخس · أما الرومان فانهم اقتدوا باليونان فى كتابة التاريخ ولكنهم قصروا عنهم ، وعدد مؤرخيهم مثل يوليوس قيصر وسلوستوس ··

ثم يتطرق الى العصر المسيحى المتقدم الذى نبذ الثقافة الوثنية وأهمل الكتابات التاريخية اليونانية والرومانية عما ألحق ضررا بعملية التأريخ ، وفى العصر المسيحى الوسيط كان المؤرخون لا يعنون بكشف الحقائق ولا يتحرون الدقة فى رواية الأحداث وكانوا من رجال الدين(١٠) ·

تلك هى أهم الخطوط العريضة التى ذكرها كاتبنا فى تطور الكتابة التاريخية منذ العصور القديمة حتى العصور الوسطى فى كتابه « تاريخ التاريخ » ، ويمكن أن يضاف الى هذا الكتاب مقالات أخرى متناثرة فى مجلات كثيرة تضىء جوانب الكتابات التاريخية ، وتكشف عن خصائص أطوارها · وقد اعتمد أدهم فى كتابه سالف الذكر على مصادر أجنبية منها كتاب « مقدمة لتاريخ التاريخ » لشتويل · و « تاريخ الكتابة التاريخية » لبيرنز و « تاريخ فلسفة التاريخ » لروبرت فلنت وغيرها فقد استشهد بآراء هؤلاء العلماء ، وسجل ملاحظاته على طرائق المؤرخين ·· ومن هذه الملاحظات نستنبط أن أدهم يميل الى الكتابة التاريخية الموثقة المستندة الى الروح العلمية ، والمستفيدة بالنقد التاريخى للوثائق ، والمتعمقة فى فهم الأحداث والأشخاص ، كما تعلن انه ينبذ الفكر الأسطورى والغيبى ، ويؤثر النزاهة على التعصب ، وتأكيد أن المعرفة التاريخية تفيد من الجغرافيا ، وضرورة التوصل الى وجهات نظر عامة من الأحداث المعروضة · وفى غير موضع يشير الى أن تماسك الأسلوب واشراقه وصفائه تجعل الكتابات التاريخية واضحة المعالم ·

والمام أدهم بالتاريخ وكتابته وفلسفته أكسبته اعتدلا فى الأحكام ، وحصافة فى الآراء التى يستلهمها من مجريات الأمور وسعة النظر فى القضايا التاريخية ودقة فى التاريخ ·

---

(٩) انظر مجلة العربى عدد ابريل ١٩٧٥ وكتاب تاريخ التاريخ ·

(١٠) تاريخ التاريخ ·

التاريخ الاســـــلامى :

ومن الأمور الطبيعية أن ينال التاريخ الاسلامى عناية كبيرة من أدهم، وهو يتناول الكتابة التاريخية وتطورها عبر الزمان . وكان قد أعد مجموعة من الأحاديث للاذاعة عن التاريخ الاسلامى ، كما نشر جملة من المقالات فى الموضوع نفسه ، ثم جمعها فى كتاب بعد اعادة النظر فيها وأطلق عليه « بعض مؤرخى الاسلام » .

وقد عرض أدهم فى هذا الكتاب لمؤرخى الطليعة ، ومن جاء بعدهم من المؤرخين المعروفين مثل الطبرى والمسعودى والفتح بن خاقان والطرطوشى وعبد الواحد المراكشى وغيرهم .

ويظهر أدهم كيف نشأ التاريخ الاسلامى « استجابة لمطالب العالم الاسلامى وحاجاته وتطوراته » من غير أن يتأثر بكتاب التاريخ اليونان أو الرومان .

وفى هذا الكتاب يلاقى أدهم بين التاريخ والجغرافيا فى ثنايا كلامه عن المسعودى وهو لا يعتقد اعتقادا راسخا فى تأثير البيئة المطلق على الانسان ، وسيطرتها عليه ، ولا يقول بالجبرية الجغرافية فى تفسير حوادث التاريخ ، وانما يرى أن الدراســـة الجغرافية للمكان عامل من العوامل الفاعلة فى التاريخ وتكوينه . ويظهر أهمية البحث فى مناشىء أصـــول السلالات والشعوب والأجناس وطبائع الأماكن والبيئات وما طرأ عليها من تغيير . وانه من الطبيعى أن الفعل الانسانى ينشأ فى بيئة ويتأثر بها . ومن ثم تلزم الافادة من الجغرافيا فى دراسة التاريخ وفهم منعطفاته ، وفى هذا المجال يذكر خصائص الكتابة التاريخية عند المسعودى الذى جمع بين المعرفة التاريخية والتمكن من الجغرافيا نتيجة تجواله وكثرة أسفاره ومن ثم فالمسعودى « ينظر الأمور بعين المؤرخ ويتأملها فى الوقت نفسه بلواحظ الجغرافى »(١١) .

ويلحظ على أدهم مسألة هامة فى التاريخ الاسلامى الا وهى علاقة السياسة بالأخلاق وذلك من خلال حديثه عن أبى بكر الطرطوشى ، ويمهد بكلام عن تباعد الأخلاق عن السياسة منذ عصر احياء العلوم الى مطالع القرن العشرين فى أوروبا ودور المسيحية والكنيسةال بروتســـتانتية فى الفصل بينهما . ليبين أن المفكرين السياسيين المســـلمين لم يفرقوا بين السياسة والأخلاق ، وفى هذا المجال يعرض لآراء الطرطوشى الذى يرى أن استناد الحكم الى المبادىء السامية يعمل على توطيد الملك وصلاح الرعية . واعتبر أدهم أن كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى بما اشتمل عليه من حديث عن الولاة والقضاة والحكم والسلطة من فصول التاريخ السياسى عند العرب . وأظهر أن الفكر السياسى الاسلامى يعتمد على العدل والانصاف والابتعاد عن المكر والخداع والدهاء وكلها قيم أخلاقية واسلامية فى آن واحد .

---

(١١) بعض مؤرخى الاســلام .

وعلى هذا النحو يتحدث أدهم حديثا مفيدا عن التاريخ والمؤرخين المسلمين · ولكنه يعرج على كتب وشخصيات أخرى مثل ابن حزم المؤرخ المحب » وكتابه طوق الحمامة » ويعتبره من كتب التاريخ لما ينطوى عليه من ترجمة ذاتية تظهر حالات النفس أثناء العشق · والرأى عندى أن النسب بين كتاب « طوق الحمامة » والتاريخ بمفهومه العلمى ضعيف رقيق · لأن كتاب ابن حزم أقرب الى أدب النفس منه الى أحداث التاريخ المروعة ، وافعال الانسان المؤثرة فى الزمان والمكان · ولا أستطيع أن أضع كتابا مثل « طوق الحمامة » يتحدث عن العشق والوصل والهجر والدله والوله الى جوار كتاب مثل « فتوح البلدان » للبلاذرى أو كتاب الطبرى فى التاريخ وغير ذلك · ولكن يبدو أن أدهم لا يعرض للتاريخ الاسلامى من حيث هو أخبار مدونة ، وأحداث مجلجلة ، وانما رغب فى عرض ألوان من التاريخ لذلك كتب عن « ابن عبد ربه » المؤرخ الأديب من خلال كتابه « العقد الفريد » ليرينا لونا من التاريخ الأدبى ، كما كتب عن أبى الحسن النباهى المؤرخ الفقيه وكتابه عن تاريخ قضاة الأندلس · ومع ذلك فانى أرى كتاب « العقد الفريد » أدخل فى الأدب وأقرب اليه ، وكتاب النباهى ألصق بالفقه، وأعلق به لأنه يتحدث فيه عن الاجتهاد والفتاوى والتشريع · ولعل على أدهم اعتبر كتاب النباهى ضمن كتب التاريخ لكثرة ما جاء فيه من تراجم القضاة ، وتزويده لنا بمعارف تاريخية قد تضىء صفحات معتمة فى أحداث التاريخ ·

ولكن كتاب أدهم « بعض مؤرخى الاسلام » مفيد فى مختلف مناحيه بما يعرضه من حيوات هؤلاء المؤرخين ، وبما يسجله من ملاحظات دقيقة وطريفة · ومحاولته ايجاد صلة بين التاريخ كعلم مستقل وبعض العلوم الأخرى التى تتصل بالتاريخ من زاوية من الزاويا · أو يبين كيف تجدى هذه العلوم فى دراسة التاريخ وتنوير أحداثه ، بل ان كتابه يظهر ألوانا من الكتابة التاريخية ويمثل بعض أطوارها ·

العالمية والقومية فى الدراسات التاريخية

لم يجمع على أدهم نتائج دراساته ، ويبلور أعماله فى نسق محدد وداخل اطار محكم ويضفى عليها طابعا فلسفيا يمسك آراءه ونظرياته . وانما أودع نتائج بحوثه العميقة . وخلاصة تأملاته الواسعة فى فصول تاريخية شائقة الأسلوب ، بعضها مجموع فى كتب مثل « صور تاريخية » و « شخصيات تاريخية » و « بعض مؤرخى الاسلام » و « **تاريخ التاريخ** » والبعض الآخر متناثر فى مختلف الدوريات . وعلى قدر استطاعتنا وبعد طول نظر أمكننا جمع عناصـــر تفكيره التاريخى داخل اطـار « عالمية التاريخ » .

وقد اعتبر بعض المؤرخين ان التاريخ العالمى هو الذى يتناول أكثر من مكان وحقبة . والمؤرخ العالمى هو الذى يخرج من اطاره الاقليمى الى ميدان أرحب ، وعلى هذا عد كل من اليعقـــوبى وأبى حنيفة الدينـــورى والطبرى والمســـعودى من المؤرخين العالميين(١) لأنهم تجاوزوا التاريخ العربى الاســـلامى الى تاريخ عرب الجاهلية والفرس واليهود والهنود والاغريق .

ولكن هذه العالمية التى يراها البعض متمثلة عند المؤرخين القدماء قد تكون اليوم ذميمة ، ففى مضمار تطور الكتابة التاريخية لم يعد يحفل المؤرخ الحديث بتناول تاريخ عديد من الدول والقوميات والحضارات فى كتاب واحد . وانما يوظف جهوده ، ويوقف همته على موضوع فرد ، أو فترة زمنية معينة ، أو حادثة تاريخية واحدة ، ويبسط فيها القول ، ويسرد الملابسات ، ويذكر الأفعال والبواعث عليها .

والمقصود من عالمية التاريخ أن يتنبه المؤرخ أو دارس التاريخ الى الروح العام للانسان ، ووحدة الحياة ، وترابط أحداثها ، والعلائق بين الواقعات ، وتأثير الحضارات السابقة فى اللاحقة لها ، لأن الممالك القديمة كانت بينها اتصالات ومبادلات فى المعارف والخبرات ، عن طريق التجارة والهجرة والغزوات ، ومن ثم تكونت أسس عامة فيما بينها ، وتحقق التأثير والتأثر بين حضاراتها . فالحركة التاريخية كل لا يتجزأ حتى مع الأخذ فى

---

(١) راجع كتاب « التاريخ والمؤرخون العرب » للدكتور السيد عبد العزيز سالم وكتاب « اليعقوبى المؤرخ الجغرافى » لياسين ابراهيم الجعفرى .

الاعتبار مبدأ « الاقليمية » لأنه لن يتاتى لنا معرفة المغزى الحقيقى للأحداث القومية أو الاقليمية الا من خلال الحركة التاريخيه العالمية ويبقى التاريخ العام قوامه الخاص ، والخاص تمامه بالعام ·

وقد شرح على أدهم بعد العالمية فى دراسة التاريخ فى مقال نشرته مجلة « الرابطة الاسـلامية » بعنوان « جذور التاريخ »(٢) ثم عاد الى دراسة الموضوع بنظر أعمق ، وكتابة أوفى فى مقال « أبعاد التاريخ »(٣) اذ قال :« ان كل تاريخ له أهميته لابد أن تراعى فى كتاباته وتصـوير أحداثه صلة العصر الذى يتناوله المؤرخ بالعصور السالفة ، وارتباط حوادثه بحوادث الأمم السابقة · فاذا تصدى مؤرخ مثلا لكتابة تاريخ العرب وحضـارتهم فلا مفر له من معرفة علاقة العرب بالفرس وقدماء المصـريين واليونان والرومان ، والنظر فى هذه العـلاقة والعمل على توضيحها هما اللذان يجعلان للتاريخ صفة عالمية عامة ، توسع آفاقه ، وتسمو به ، وتجدى عليه » ويقول أيضا : « والتاريخ الخاص الذى يصور حياة جيل من الأجيال أو أمة من الأمم لا تفسر أحداثه تفسيرا وافيا الا فى ضوء التاريخ العام · لأن التاريخ الخاص فصـل من فصـول التاريخ العام » ·

فالتاريخ العام أو العالمى عنده ليس هو التاريخ الموسوعى الذى يشتمل على التأريخ لعدة مناطق ، وانما هو التاريخ الذى يعنى بايضاح الصلات بين عصر ولى وعصر جديد ، وتأثير واقعة مضت فى واقعة وليدة ، ونفى القول بأن حضارة واحدة أمدت بقية الحضارات بالثقافة والعلوم والفنون وأسباب النهوض ، وهذا يعنى تأصيل جهود الانسان وتواصلها ، وتحرى حقائق الحياة وفهم مغزاها ، وترابط الحوادث والأفعال وتمهيد بعضها لبعضها ·

وقد دلل أدهم على رأيه بهذا المثل الذى استشهد به فى المقالين المشار اليهما وهو قول « ريتشارد لفنجستون » : « ان حياة أوروبا الروحية أو حضارتها بمعناها الكامل العميق ترجع الى مصدرين لا ثالث لهما : هما اليونان وفلسطين · ونصيب الأخيرة واضح ولكن علينا أن لا نقلل من أهمية الأولى » وراح أدهم يدعم هذا الحكم بحكم آخر وهو أن فلسطين واليونان وروما تأثرت بحضارات وادى النيل والبابليين · ولا يمكن انكار أن الحضارة الهلينية أو الديانة المسيحية هما المنبعان الروحيان لحضارة أوروبا ولكن يجب أن يضاف اليهما الحضارة العربية الاسلامية ·

وقاده تأمله للنظم الاجتماعية وانتقال الانسـانية من الفردية الى الأسرة ثم القبيلة فالملكية فظهور السلطة الدينية ومجىء عهد الدول الكبرى ، الى أن « الحضارة تتجه الى غاية تشترك الأمم المختلفة فى سوق جموع الانسانية اليها » ·

---

(٢) مجلة الرابطة الاسلامية عدد ١٩٦٣/٥/١٦ ·

(٣) مجلة قافلة الزيت عدد أكتوبر ١٩٧٠ ·

وقد اهتم المترجم له بهذا البعد التاريخى فى تراجمه التـاريخية العديدة ، فربط بين ما كان يعتمل فى نفوس الفرس والعرب العباسيين فى كتابه عن أبى جعفر المنصور ، ووثق بين أحداث التاريخ الأندلسى الذى خاض غماره القوط والعرب والبشكنس والبربر · ودراسته لهذه الشخوص فى تاريخنا القومى من خلال الأحداث المعاصرة لها ، والسابقة عليها ، والمؤثرة فيها ، خلع عليها صفة العالمية · ومن خلال هذا الاطار لايمكننا اعتبار هذه الصفحات التى كتبها عن هؤلاء الأبطال صفحات باقيات فى تاريخنا القومى فحسب ، بل صارت جزءا من التاريخ العام ·

وتلك التراجم الاسلامية تمثل فى الوقت نفسه النزعة القومية عند أدهم ، ولا يمكن الحكم عليها بأنها من تأثير الماضى فقط وايحاء منه وكأنها غاية فى ذاتها ، بل انها وضعت حجرا فى صرح النهضة القومية بابراز مآثرنا الرائعة ومفاخرنا الباهرة ، وحسبنا هذا وحسبه ·

والتعبئة الوطنية لابد أن يصاحبها احياء التاريخ الوطنى ، لأن بعث الأمجاد الماضية يعتبر فى هذه الحالة احدى وسائل الكفاح · واننا لا نجافى الحقيقة اذ قلنا أن هذه الكتب واكبت التيقظ القومى ، وصاحبت التنبه الوطنى ، ومن ثم كان لها دورها وأثرها فى تقوية الحركة الثورية ، وفى تطلعنا الى مراقى العز ، والسعى الى تسنم المجد · وكتابه صقر قريش الذى صدر عام ١٩٣٨ والأمة العربية فى قبضة الاستعمار لا يعنى أنه ترجمة لرجل عظيم ، وترديد لأخبار العصور الخالية ، أو وقوف على الخفايا المستسرة فى حياة العظماء فحسب ، ولكنه يهدف كذلك الى شحذ الهمم ، بتمثيـل هذه القيم ، واثارة الحماسـة فى أوقات الثـورات والاضطرابات ، وهكذا يدفع المؤرخ وكاتب التراجم التاريخية أبناء أمته الى صنع حياة جديدة وتاريخ جديد يتأثر · بالماضى ويسـتمد بعض المقومات منه ·

ومن بين ما يعاب على كتاب التاريخ القومى ميلهم الى اثبـات الأحداث التى تؤيد وجهة نظرهم ، وأخذ الوثائق التى تقوى اتجـاههم وتقربهم الى أهدافهم حتى وان كانت ضعيفة أو مشكوكا فى صحتها أو تطويعا للروايات لتلائم مواقفهم ، ومن هنا يجب على الـكاتب والمؤرخ تحقيق الأخبار المدونة واخضاعها لميزان النقد العلمى ، فيعتمد منها ما يؤيده العقل ولا تنكره بقية الأحداث ، ويعين الدارس فى هذا حسه التاريخى والمامه بدرجات الثقافة ، وتطورات الحضارة للعصر الذى يتعامل معه أو يترجم لشخصية فيه · ونقد الروايات التاريخية ليس مفيدا فقط فى تصحيح مفهوم التاريخ والمحافظة على المستوى العلمى للدراسة التاريخية ، ولكنه يجدى كذلك عند البعث القومى لأن الاستناد الى روايات يغلب عليها الوهم والخيال الأسطورى لا تخدم الموقف القومى لعد قبول الذهن لها ، وفتور العاطفة عند تلقيها ·

ومن يطالع دراسـات أدهم التاريخية يجد أنه يفحص الروايات ويختبرها مع قرائنها ليتلافى المزالق ، ويجلو الحقائق ، ولم يعتمد على

أحداث خيالية أسطورية ليحيط تاريخنا بهالة من الفخار الموهوم ، والاكبار المزيف ، والاعزاز المستكين ، بل اننا نراه يأخذ على بعض المؤرخين هذه الهنات . فعاب على تيتوس ليفيوس اكثاره من ذكر الخرافات والأساطير لأنها « صالحة ونافعة من الناحية الأدبية وناحية الدعاية القومية »[٤] وانتقد المؤرخين الصينيين من أمثال سيزماتيان وسيزيما كوانج لأنهم لم يضعوا واقعاتهم فى موازين النقد وهم «يتناولون التاريخ باعتباره فنا قوميا نافعــا » وامتدح هيردوت « لأن عاطفته القـــومية لم تتغلب على أحكامه »[٥] .

(٤ ، ٥) أصول الكتابة التاريخية ـ مجلة قضايا عربية عدد مايو ١٩٧٥ .

منهجه فى كتابـــة التراجم التاريخية

فى كتابة سير العظماء والعبقريين تنبيه للأمة بأمجاد رجالها الخالدين الذين ساهموا فى صنع تاريخها وحضارتها ، وعملوا على رقيها السياسى والفكرى ٠ وعندما نسجل تراجم الأفذاذ والممتازين فاننا نعبر عن جانب من طموح الأمم وتقدمها ٠

وقد حظى الأدب العربى الحديث بتراجم كثيرة للاستاذ على أدهم الذى برز فى هذا الفن الأدبى التاريخى ، وتراقى فيه الى مـــكان متقدم استحقه على أثبت قدم ، فصار من زعمائه ٠

دبج على أدهم سيرا طويلة عن أبطال أماثل فى الشرق والغرب من أمثال عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبى عامر ، وأبى جعفر المنصور ، والمعتمد بن عباد ، ومتزينى ، وجميعها سير طويلة فى كتب مســتقلة ، وله عدا ذلك تراجم قصيرة كثيرة عن أمثال نابليون ، وتاليران ، ويوسف بن تشفين ، وكروبتكين ، وابن بسام والفتح ابن خاقان ، والطبرى ، والمتنبى وتولستوى وابن خلدون وغيرهم ٠

ومن هذا الثبت المحدود نقف على قريحة جائلة جائدة ، دارة تتوالى مواهبها ، تعينها سعة المعرفة الراشدة على الاحاطة بالنفوس ، ومعاشرة الشخوص ٠ وبعض هؤلاء الذين ترجم لهم من مؤسسى الامبراطوريات ، وبناة الدول ، وشداة الأدب ، وهداة الانسانية ، ومنهم من قام بأدوار كبيرة فى تاريخ البشر ، اذ دخلوا فى صراعات رهيبة من أجل اعلاء كلمتهم ، وتأكيد ذواتهم ، وفرض أفكارهم على شعوبهم ، وعلى شعوب مجاورة لبلدانهم ٠

موقع أدهم بين كتاب التراجم

كتابة التراجم تتشعب فيها المذاهب طرقا ، حتى صار الكتاب فيها شيعا وفرقا ، وهذا يرجع الى كاتب الترجمة حينا ، والى صاحب السيرة أحيانا ، فهناك من يرسم صورة مثل الأستاذ العقاد ، وهناك من يبدع فى الترجمة حتى تصبح عملا فنيا قصصيا مثل ماصنعه ميخائيل نعيمة فى ترجمته لجبران خليل جبران ٠

منهج السيرة والتطور الداخلى :

أما لى أدهم فانه توخى منهج السـيرة ، حيث جرى على اتباع طريقة التسلسل الزمنى ، والتعاقب التاريخ ،ولعله متأثر فى هذا ببعض كتاب التراجم فى أوروبا من أمثال ستيفان زفايج ، وليتون ستراتشى ، وأندرية موروا ، وكلهم يتبعون هذا المنهج ، الا أنهم يختلفون فى طريقة التناول ، فستراتشى مثلا يبرز حياة صاحب الترجمة مراعيا النمو الداخلى للشخصية ،غ ويخضع الدراسة الى التحليل العلمى ، وهذا ما يتبدى لنا من ترجمته للملكة فكتوريا ، واندريه موروا يمزج بين السرد التاريخ والفن القصصى ، وهكذا ..

ومذهب على أدهم كان أقرب الى طريقة ستراتشى . فكان يراعى التطور الداخلى للشخصية ومن ثم ارتضى منهج السيرة الذى يحقق له ما يصبو اليه من ايضاح مغالق النفس ، وكشف دخائل الضمير من مجمل الأخبار ، وتطور الأحداث .

والانسان بطبيعته لا يعيش حياته على حالة واحدة ، فهو قلب . دائم التغيير ، بل نستطيع القول : ان سمات الانسان وملامحه الظاهرة أقل فى تغيرها من نفسه ، ومن ثم تتبدل وجهات نظره تبدلا أساسيا نتيجة للأوضاع المتقلبة ، والأحوال المتصارعة ، وهذا يعوزنا ـ من كاتب التراجم ـ الى استجلاء الحالات المختلفة التى مرت بالمترجم له ، ويبين لنا كيف كان فى طفولته ، ودرج فى صباه وشبابه ، حتى استقر على أوضـاع بعينها فى شيخوخته .

ان مهمة كبرى تواجه كاتب الترجمة تلك هى اسـتظهار مختلف العناصر التى كونت الشخصية التى يعرض لها ، والتى لا تكون غامضة فقط على القارىء بل أحيانا تكون معقدة وغير جلية حتى على البطل نفسه ، ومن هنا وجبت كتابة السيرة ، واتباع التسلسل الزمنى ، لأنه من مزايا هذا المنهج أنه يعطيك عديداً من الصور للانسان الواحد فى مراحل عمره . وهذه هى الطريقة التى ارتضاها على أدهم فى تراجمه ، فنراه يصطحب بطله مستكشفا سجاياه ، متفهما خصائصه من كل فعل صغير أو كبير ، ومن كل قول جليل أو دقيق مسجلا الظواهر النفسية للحالات الشعورية المتباينة ، وهكذا يبين لنا التطور الداخلى للشخصية التى يترجم لها .

ونظرة متأنية الى ترجمته لأبى جعفر المنصور نجد مصداق ذلك ، فقد بين لنا مختلف ملكات المنصور ، وكيف تدرجت منذ نشأته ، حتى صار داهية مكيرا يعد لكل شىء عدته ، ووضح من خلال سياسة المنصـور وادارته تطور أفكاره ، واشراقها فى نفسه عبر أحداث ومواقف شهدها ، وكيف كان يتخذ القرارات الخطيرة ويثبت عليها بعد أن يقلب الأمور على مختلف وجوهها .

واذا وازنا بين الأستاذين العقاد وأدهم فى طريقة كتابة كل منهما للتراجم نجد أن العقاد يرسم صورة للشخصية من جميع جوانبها غير مكترث بالتسلسل الزمنى ومثله فى هذا بلوتارك ، أما أدهم فهو كاتب سيرة يراعى فيها التتابع التاريخى ٠

ويقول الأستاذ محمد خليفة التونسى ان الترجمة اما صورة وأما سيرة ثم يقارن بين الطريقتين فيقول الأستاذ الجليل : « الربط بين أجزاء السيرة أسهل على الكاتب والقارىء والربط بين أجزاء الصورة عسير عليهما معا »(١) ٠ والمسألة هنا ليست مسألة السهولة أو الصعوبة ولكن أيهما أجدى فى التناول ؟ وفى اعتقادى أن كتابة السيرة لابد منها فى تراجم الأبطال والقواد الحربيين لكثرة الأحداث التى تلم بهم ، أما رسم الصورة فربما كانت أجدى لرجال الفكر لأنهم يمرون بأحداث عادية فى معظم أحوالهم ومن ثم فالذى يترجم لهم لابد أن يعطينا صورا عديدة لنتاجهم الفكرى ٠

ولكن يجب أن نقف هنيهة عند تراجم العقاد والعبقريات الاسلامية بصفة خاصة ، فالعقاد كتب العبقريات عن قواد وأبطال أكثر شهرة من غيرهم فهل نلزمه بكتابة سيرة ؟ الواقع أننا لو طلبنا منه ذلك لما زاد شيئا عن الذين سبقوه وبخاصة أن محمدا وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا كثرت عنهم التراجم التى تناولت تطورات حياتهم ، ولهذا كان لابد للعقاد أن يدرس هؤلاء القواد العباقرة فى ظل منهج آخر ألا وهو رسم الصورة للشخصية من جميع جوانبها حتى تتضح فى الذهن تماما ٠

أما الذين كتب عنهم على أدهم فأقل شأنا وذيوعا بالنسبة للخلفاء الراشدين كما أن ما ألف عنهم أقل بكثير مما ألف عن هؤلاء ومن ثم وجب تقديمهم شيئا فشيئا الى القارىء من خلال سيرة تنمو مع الزمن وتعطيك عدة صور ، كل صورة منها مرهونة بوقتها وملابساتها بحيث لا تغنى فيها صورة عن أخرى ، فكلها لازمة لتمام الترجمة ٠

وقد وضح على أدهم طريقته فى كتابة التراجم فى كتابه « على هامش الأدب والنقد » قائلا : « وميلنا الى الترتيب التاريخى التعاقبى نزعة حديثة ولعلنا نشعر بها أشد شعور فى العصر الحديث لأننا نحس احساسا قويا أن الأفراد والشعوب فى حركة مستمرة وتطور دائم » ٠

وقد وجه على أدهم انتقادا لبلوتارك وهو من كتاب التراجم بالصور حيث قال فى كتابه السالف الذكر :

« وهو فى سوقه للحوادث ٠٠ لا ندرى هل الحادثة التى يقصها علينا قد حدثت بعد الحادثة التى رواها لنا من قبل أو سبقتها » وهو مأخذ فى محله لأن ترتيب الحوادث من شأنه أن يبين لنا التطور الداخلى للشخصية ونمو الأفكار فى الذهن ، وتسلسل الأسباب ، وربط المواقف السالفة بنظائرها وأشباهها الآتية ٠ وهذا ما نهض به على أدهم فى مختلف تراجمه ٠

---

(١) مجلة الكتاب العربى ـ ديسمبر ١٩٦٤ ٠

السـرد والتفسـير :

نشر علي أدهم ترجمة لعبد الرحمن الداخل عام ١٩٢٣ في جريدة « السياسة » ثم أخذ يتوسع فيها حتى ظهرت في شكل كتاب مستقل عام ١٩٣٨ • والذي ينظر الى هذا الكتاب في هذه الأيام يجده كتابا عاديا نظرا لكثرة كتب التراجم • ولكن عندما نعود الى وقت نشره نعرف أن كتب التراجم المنشورة قليلة وأشهرها « ذكرى أبي العلاء » لطه حسين و « ابن الرومي » للعقاد ، و « حياة محمد » لهيكل ويكاد يكون كل كاتب من هؤلاء مشهورا بكتابه •

ونستبعد كتابي « ذكرى أبي العلاء » و « ابن الرومي » بوصفهما ترجمتين أدبيتين ، فيتبقى معنا « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل و « صقر قريش » لعلي أدهم ، وهما ترجمتان تاريخيتان ، وبالموازنة بينهما في منهج الدراسة نجد أن منهج هيكل يعتمد على « السرد » بينما منهج علي أدهم يستند الى « التفسير » فهيكل معنى باحصاء الوقائع والأحداث أما أدهم فاهتمامه ظاهر بتفسير الواقعات والأحداث أي أنه يعلل ويحلل ويشرح الظروف التي تمت فيها المواقف والمشاهد ، أو بمعنى آخر لا يكتفي بذكر الحادثة بل يبين ملابساتها •

وبهذه الطريقة التفسيرية علل علي أدهم الجفوة التي كانت بين عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » وبدر بن عمار خادمه الأمين ، حيث لم ينج الأخير من غضب الأول وحدته وانتقامه ، فوضح أن الجفاء « الذي نشأ بينهما يرجع الى اختلاف في طبيعة الرجلين » ثم يوضح أن عبد الرحمن الداخل « كان رجلا مطبوعا على الكفاح لا يقر له قرار ولا تهمد له حركة وكان في دمه لهب لا تخبو ناره ، وفي ورحه عاصفة لا يهدأ هبوبها ، فلم يستطع بدر المسكين أن يظل متابعا خطواته الحثيثة متوقلا معه في معارجه البعيدة المطالع ، وكان خليقا بعبد الرحمن أن يرحم مولاه الأمين الذي كان يحلم بالراحة بعد العناء الطويل ، والجهاد الشاق ولكن الرجل الذي أنفق حياته في القضاء على الفوضى وحسم علتها لا يستطيع في أواخر أيامه أن يغضي عن أقرب الناس اليه واحظاهم عنده اذا قاوم ارادته واعترض سعيه »(٢) •

فهو هنا يذكر الحادث وهو الجفوة بين بدر وعبد الرحمن ثم يفسر سببها والباعث عليها ، وهذا التفسير للأحداث هو اجتهاد الكاتب بعد تأمله للتاريخ ، وهو مالا تفعله الطريقة « السردية » طريقة الرواة والمسجلين •

ويقول أدهم في مقال له بمجلة العربي : « على المؤرخ أن يفسح مجال التفسير التاريخي بطريق استقصاء المعلومات المتصلة بالموضوع الذي يتناوله حتى يستبين لنا معنى الأحداث التي يصفها ولا نراها منافرة لتجاربنا وقد نرى في التاريخ حماقات وسخافات نعجب من أمرها ، والمؤرخ الحق يستطيع أن يوضح ما كانت تنطوي عليه هذه الحماقات والسخافات

---

(٢) كتاب « صقر قريش » لعلي أدهم •

من عناصر الحق وهو لا يحيلها فضائل وانما يجعلها مفهومة لنا من الناحية الانســـانية »(٣) وهكذا يكون من مهام كاتب التراجم أن يفسر ما يحتاج الى تفسير ، ويوضح ما يفتقر الى الايضاح .

وتفسير أدهم للجفوة التى وقعت بين بدر وسيده ، يبين ما تختص به سير على أدهم من معايشة لأبطاله فترة من الزمن وتفهم خصـــائص نفوسهم ، والنفاذ الى العوامل التى تحركهم ، كما أن تعاطفه ومعايشته لبطله يجعلانه أكثر احساسا به ، وأنفذ الى خلائقة وسجاياه ، واتجاهات ذهنه ، عارفا بسلوكه وخط سيره ، وطول الامعان فى حياة الرجل يجعل الكاتب موفقا فى نقضه وابرامه ، ورأيه وحكمه ، وهذا ما أفضى بالأستاذ العقاد الى القول عن كتاب متزينى لعلى أدهم »(٤) انه على وفرة اطلاعه (يقصد أدهم) يعيش فى الجو الروحى الذى كان يعيش فيه متزينى ونظراؤه ومريدوه ، وقد كان لمتزينى نظراء فى هذا الجو الروحى يختلفون فى المذاهب الفكرية أبعد اختلاف » .

وتجدى مراقبة أدهم العقلية الفاحصة لنفوس الأبطال فى كشف سر عظمتهم وتفوقهم ، واذا كان أدهم قد اهتم بالعوامل التاريخية التى يتجاوب معها البطل ، فانه يقف كذلك على العوامل النفسية ، فيصور لنا نفوس أبطاله ، ويبين لنا شدة عزيمتهم ويرى أنهم يخضعون « لعاطفة مستحلة عليهم ، غلابة على نفوســـهم ، وحول القوة التى تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تتركز الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم فلا يســـتوطئون راحة ، ولا ينعمون بسعادة ، وهى السر فى الجهود الجبارة التى يبذلونها ونراها نحن فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان » . وهكذا يلتقى التفسير التاريخى والتفسير النفسى فى كتابات على أدهم عن الأبطال فتستنير بصـــائرنا بأحوالهم ، وتتكشف لنا أسرار بطولتهم وفحولتهم .

وعلى أدهم لا يخضع ظهور العظماء سواء فى الحرب أم فى السياسة أو الفنون الى القوانين الجبرية ، وعنده أن الأفذاذ يبرزون عند « التقاء المواهب الطبيعية بالظروف المواتية »(٥) ويذهب الى أن القدرات الخاصة والمواهب الكبيرة ، غير كافية لاعلاء العظماء وتفوقهم ، فلابد أن تكون الأحوال والأجواء التى يعيشون فيها موائمة ومناســـبة لتلقى أفكارهم وآثارهم ، واذ كان أدهم يشترط استجابة العصر لمواهب الفذ وعطائه ، فانه يقرر أن « العصر » لا يخلق العظيم ولا يوجد النابغة . وخلاصـــة الرأى أن العامل الأساسى فى ظهور الممتازين هو وجود المواهب والملكات ، والعامل المساعد هو نضج الأحوال واستعداد الناس لتقبل ما يأتى به الأبطال .

---

(٣) مجلة العربى يناير ١٩٦٦ .

(٤) جريدة الأساس فى ٢٥ يولية ١٩٥٢ .

(٥) مجلة العربى عدد يناير ١٩٧٥ .

بل انه يذهب الى اكثر من هذا ، حيث يرى أن معـــرفة العواطف المسيطرة على نفوس العظماء تساعد عقولنا على فهم أو تفسير روايات دستوفسكى ، وتولستوى وبلزاك وغيرهم ٠

التاريخ والترجمة :

نعود مرة أخرى الى كتاب الدكتور هيكل عن « حياة محمد » بوصفه أحد الكتب الأولى البارزة فى تراجم الأعلام والذى ظهر فى ثلاثينيات القرن العشرين وأحدث ضجة كبرى ٠

والنظرة السريعة أو المتأنية فى هذا الكتاب تبين أن ما كتبه الدكتور هيكل يعتبر الى حد كبير حياة الاسلام أو تاريخ الاسلام وقت ظهوره ، حقا أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هو أكبر رأس اسلامى ، ولكن الكتابة عنه بتلك الطريقة يعتبر تاريخا وليس ترجمة ٠ فالترجمة هى أن يأخذ الكاتب من أخبار العصر ماله تأثير فى تكوين الشخصية ٠ والترجمة توجه خاص من الكاتب الى الانسان الذى يتناوله ، ويتنبه الى حركة الوعى عنده ، ويتفهم دخائل شعوره وعلائقه بمعاصريه وأحداث زمنه : اما اذا وصف الكاتب فترة من الفترات أو عصراً من العصور وأسرف فى ذكر العوامل الكثيرة التى شكلته مثل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ٠٠ الى آخره ٠ فهذا هو التاريخ ، فالتاريخ توجه عام من الكاتب الى العصر يعرض فيه جملة من الشخوص حسب أدوارهم ، أو يتناول فيه حياة دولة فى زمن فسيح أو ضيق موضحا كل الخيوط التى تداخلت حتى شكلت نسيجها ٠

وهناك بعض الكتاب الذين يعرضون لفترة زمنية تحت اسم رجل أو امرأة ويسمون هذا ترجمة ، مثل كتاب « حياة محمد » ٠

أما على أدهم فانه كان يعرف فن كتابة الترجمة ، ويطبقه بدقة تامة ، فلا يطغى عليه ماليس له صلة بمن يترجم له ٠ ومن خلال المفهوم الذى أدركه أدهم عن كتابة التراجم دبج عديدا من الكتب التى تناولت الأعلام موضحا التطور الداخلى للشخصية ، وعلائقه بعصره ودوره فى الأحداث ٠

فحياة عبد الرحمن الناصر ـ كما صورها أدهم ـ ليســت تاريخ الأندلس فى تلك الفترة التى حكم فيها وانماهى سيرة تناولت سـياسة الناصر فى استرداد سيطرة دولة بنى أمية على اصقاع الاندلس ، وتحويل الامارة الاندلسية الى خلافة تنافس العباسيين فى المشرق ، ووقوفه فى وجه الخطر الفاطمى الذى كان يهدد الخلافة فى قرطبة ، وصراعه مع الدول المسيحية فى الشمال ، ومواقفه من وزرائه وقضاته وقواده ، ومعالم حياته الخاصة ٠ فهى سيرة متكاملة مترابطة تتناول شخصا ولا تعرض عصرا ٠

المـــــوازنة :

وكان أدهم يستخدم الموازنة ، وأحيانا يعتمد عليها فى سبيل ابراز معالم الشخصية ، فيوازن بين شخصيتين ويحدد نظر كل منهما ازاء موقف معين ٠

والموازنة خطوة من خطوات البحث العلمى ، لأنها تجلى الفوارق ، وتبين درجات التمييز ، وتكشف عن الخصائص المشتركة أو المتفردة فى الشخوص ٠

وهناك مرحلة من المراحل تستلزم وجود الموازنة التى لا يقتصر دورها على التفريق بين الشىء الجوهرى والشىء العرضى ، ولكن قد تفرق بين الشيئين الجوهريين ، وهكذا نستخلص مبادىء عامة من هذا العمل ٠

وموازنات بلوتارك بين القواد الحربيين أو بين الخطباء مثلا كشفت عن أشياء مفيدة ، وقد كان بلوتارك موفقا عندما كان يقارن بين خطيبين أو قائدين حربيين ، بعكس ما فعله كارليل الذى راح يوازن بين شخصيات ليست من طبقة واحدة ، أو نوعية واحدة فمثلا يقارن بين شكسبير كبطل ومحمد عليه السلام كبطل ، وهنا يجب أن نفرق بين العبقرية والبطولة ، فالبطولة درجة أعلى من العبقرية ٠ وقد يكون الانسان بطلا وعبقريا فى آن واحد ، فى حين أن العبقرى قد لا تتوفر له البطولة ٠ وهذا ما نحن بصدده فمحمد (ص) بطل وعبقرى فى آن واحد ، بينما شكسبير عبقرى فقط ، وكل من الشخصيتين أدى دوره ورسالته ٠ وما نود قوله أن كارليل أخطأ عندما وازن بين شاعر ونبى ، وقد أوقعه هذا فى حكم خاطىء ٠

والموازنات التى نراها فى تراجم الأستاذ على أدهم من نوع موازنات بلو تارك ، أى أنه يوازن بين شخصيتين من نوع واحد مثل الموازنة التى أقامها بين متزينى وكافور وهما من أبطال الحركة الاستقلالية الايطالية فكشف عن مزايا كل منهما واختلاف طبيعتيهما ، ويمكن قراءة تلك الموزانة فى كتاب « متزينى » ص ١٢٠ ٠ أو الموازنة التى عقدها فى كتابه « تلاقى الاكفاء » بين مدام دى بارى محظية لويس الخامس عشر ومارى أنطوانيت زوج ولى العهد ، فقد بين مرامى كل منهما وما تنطوى عليه نفسيتيهما ، وأوجه التباعد فى نظرهما للأمور ، ووسائلهما فى المنافسة ، وارتباط كل هذا بالسياسة العامة للدولة ٠

وهكذا كان أدهم يوازن بين شخوص تتشابه فى المكانة والنوع ، وتختلف فى المواهب والأمزجة ، وطريقة التصـــرف فى المواقف ، ووزن الأفعال ، وتقدير الأحوال ، وتعيين العلل ٠

وقد يلجأ أدهم الى الموزانة بين شخصيتين متضادتين فى المســلك والطبيعة النفسية ليستنتج معارف كاثرة عنهما من مواقفهما ، مثل موازنته بين نابليون وتاليران وزير خارجيته ، فبعد أن يتناولهما تناولا دقيقا من

خلال بعض المواقف يذكر قول نابليون فى وزيره : « فيه الكثير من الصفات اللازمة لمباشرة المفاوضات ، فله تجربة رجل الدنيا ، ودراية بالبلاطات الأوروبية ، وعنده الذكاء والألمعية ، وشيء آخر أكثر منهما ، وهو ذاك المحيا الذى لا ينحسر قناعه ولا تنم على شيء أساريره ، ثم الاسم العظيم الذى يحمله » ويعلق على أدهم على كلام نابليون فى تاليران بقوله : «ونلمح من ذلك أن اعجاب نابليون به كان من قبيل اعجاب النقيض بنقيضه ، فقد كان نابليون محتدم المزاج نارى الطبع ، ينقصه هدوء تاليران الذى كان لا يروع سـر به ، ولا تهيل الحوادث من جانبه واقتداره على ضـبط نفسه »(٦) فأدهم يستنبط قدرا من الأشياء النفسية عن نابليون من حديثه عن شخصية تختلف عنه فى الطراز النفسى ، والنمط السلوكى ، « وبضدها تتمايز الأشياء وهكذا تجدى الموازنة فى التعرف على السمات المميزة لأبطال التاريخ وعباقرته ٠

نقـد الروايات التـاريخية :

وفى هذا المجال يجب أن نشير الى ضرورة نقد الروايات والروافد التى يستمد منها كاتب التراجم ٠ فنقد الأصول التاريخية وغربلة روايات الماضى الداثر واستحضارها بعيدة عن الأوشـاب التى لحقت بها عبر القرون من أهم أعمال المؤرخ وكاتب التراجم الحديث ٠

وقد كان أدهم يعمل النظر ، ويجهد القريحة فى روايات الكتاب عن أبطاله الذين يترجم لهم ، فنراه لا يتخشع أمام أقوالهم ، ولا ينقاد لمقولاتهم ، وانما يقلب الأمر ، وينظر فى الرأى ، ويتأمل الرواية ، وأحيانا ينتهى الى مافيها من مغالاة أو اسراف فى جانب دون آخر ، ومن هذا انتقاده لرأى ابن بسام فى الذخيرة يصف ابن عمار : « كان زير قيان وغلمان ، وصريع راح وريحان ، أمله شرب كأس وشم آس ٠ وجزله فى نصب حباله لغزال أو غزالة حتى ثل ذلك عرشه وطأطأ من سموه » ٠

ويعلق على أدهم على هذا الكلام بما كتبه فى كتاب « المعتمد بن عباد » بقوله « هذا رأى ابن بسام ، ولكنه نظر الى جانب واحد من حياة هذا الرجل الذى شغل بال معاصريه وكثر حساده ومنافسوه ، فقد كان ابن عمار الى جانب نزعته الابيقورية رجلا طموحا شديد الثقة بنفسـه والاعجاب بها ٠٠ » ثم أخذ يروى مايدعم رأيه بذكر مطـامع ابن عمار وتطلعه الى توسيع حدود مملكة اشبيلية على حسـاب مرسية وأعمالها الى آخر ما أورد من تفاصيل وجزئيات ٠

ويعنينا من هذا العرض أن صـاحبنا لم يعتمد على رواية قرأها وأقام حكمه على رجل من خلالها ، وانما راح يستقرى التاريخ ويستظهر منه ما يجعل ابن عمار رجل دولة له طموحه ، وهناك ما يشغله غير الغلمان والقيان ٠

---

(٦) كتاب « تلاقى الاكفاء » لعلى أدهم ٠

وفى كتابه عن أبى جعفر المنصور يورد روايات كثيرة عن شح المنصور مبخلا يضرب بشحه الأمثال » ويرى على أدهم أن المنصور لم يكن يحب المال لذاته ، وانما كان يحرص عليه « ليتخذه وسيلة الى القوة والنفوذ وحماية الدولة ورد غائلة الأعداء عنها » وراح يسرد عديدا من المواقف التى كان المنصور ينفق فيها المال لمقتضيات السياسة أو فيما يصلح أمور الرعية دون تبذير أو تقتير .

ومثل هذه الوقفات والانتقادات تضعف من بعض الروايات ، وتقلل من تأثيرها ، وتعمل على تعديل الأحكام الظالمة ، وتجعل كاتب التراجم أكثر انصافا ، وأعمق نظرا وتحليلا .

وهكذا كان أدهم يتحرى الحقيقة ويستجفى كل ماهو متهم حتى يصل الى الصواب . ونظرا لتداخل الأحداث التاريخية وتشعب بواعثها ودوافع فعلها فى حياة الأبطال صارت كتب التراجم أمرا ضروريا .

وقد تكون المعطيات عن البطل مأخوذة من حياته الواقعية مما يبدو كأنها معلومات بدهية الا انه من الخطأ ترديد عبارات ، وذكر مواقف من غير فهم دقيق لها ولبواعثها ومدلولها .

ومن ثم فانه لابد — فى هذه الحالة — من الدراسة العلمية المتأنية فى الأخبار والأحداث والافادة من تقليب الموضوعات للتمييز بينها ، ولابد أن نقرر أن المحاورات التى كانت تدور بين أدهم ونصوص الروايات التاريخية تكشف عن تناوله الجدى للموضوع ، والمعيته فى القدرة على فهم النص ، والكشف عن بواعث الفعل ، وفى هذا الجو يعرض وجهة نظر معينة ، قد تخالف النص الذى يناقشه ، وقد تؤيده ، ولكنه يصارحك بما يعتقد فى الحالين .

وخلاصة الرأى أن أدهم كان يقرأ الروايات التاريخية قراءة نقدية ، فينفى بعضها ، أ ويعدل أجزاء فيها ، أو يكملها بتصور جوانب أخرى لم ترد فى ثناياها مستندا الى طبيعة الشخصية التى يعرضها أو روح العصر الذى عاشت فيه .

اجتهـــاد كاتب التراجم :

ومما يجدر ذكره أن دواوين التاريخ وموسوعاته لا تحفل بكل دقيق وجليل عن عظيم من العظماء ، ولا تفسر كل منعطف فى حياته فانها قد تغفل كثيرا من النقاط التى يراها المؤرخ القديم قليلة الأهمية فيتجه ذهنه الى أشياء دون أشياء حسب تقديره الشخصى لما يشاهد أو يسمع ، أو ربما يفقد مرجع أساسى يشتمل على أخبار معينة عن بطل نترجم له . ومن ثم فاننا نلقى فجوات وثغرات فى الحقبة التاريخية الواحدة ، وليس أمام الباحث — فى هذه الحالة — الا أن يقرأ الوثائق والروايات المدونة قراءة

مجهرية ليستخلص منها ماليس فيها ، وينشط ملكة التصور لاستظهار الخفايا ، وعلاج المواقف ، وايضاح الأحداث ٠

وعلى أدهم يعطى نفسه هذا الحق فى وصف الصراعات الداخلية ، وتصوير التيارات الخفية فى نفوس بعض شخصياته ، ولكنه لا ينأى عن الاطار العام للواقعات وشواهد التاريخ ٠ وعلى سبيل المثال نقرأ فى كتابه عن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور قصة أبى مسلم الخراسانى مع أمير المؤمنين « أبى جعفر » والحوار النفسى الداخلى الذى دار فى نفس كل منهما ، ويبين أهمية كلمات أبى جعفر ومواقف أبى مسلم فى اثناء الصراع الذى دار بينهما حتى أنتهى بمقتل الأخير ٠ والكاتب النجيب بماله من يقظة الذهن ، وسمو الخيال ، والتفقه فى فهم نفوس الأبطال يفطن الى مفهوم كل اشارة ، ومدلول كل لمحة وعبارة ، فقد صور أدهم الجو النفسى الذى تمت فيه فصول تلك المأساة بدقة المؤرخ ، ومعـــرفة النفس وذوق الأديب ٠ حقا انها صفحات تاريخية فنية نفسية فى وقت واحد تحرك عقولنا وعواطفنا جميعا ٠

وان هذه السير التى نطالعها عن الأبطال لا تمثلهم تماما ، لأنها لا تسجل كل حركاتهم فى حيواتهم ، ولا تتضمن طبيعتهم على الوجه الأكمل ، وانما يتطلع الكاتب الى الكمال فى تراجمه عندما يكتب عنهم بقدر ما تمده به المصادر التاريخية ، وبقدر ما تسعفه قريحته وخياله فى سد الثغرات ، وجلاء الغوامض ٠ أو بعبارة أخرى ان ما يصوره كاتب الترجمة هو محاولة جادة للتعرف على سمات تلك الشخصيات ومقوماتها حسب ما يتوسم وما يتصور ، وتراجم على أدهم يحاول فيهاأن يضـــع البطل فى منظوره السليم ، وفى موقعه الخليق بأن يوضع فيه ، والسير التى دبجها عامرة بالحياة الانسانية فى نواحى ضعفها وقدرتها ، وفى ترجمته للخليفة عبد الرحمن الناصر يذكر قصته مع جاريته وقد أسرف فى الشراب ذات ليلة وأكثر من تقبيلها فتبرمت وتضجرت فأغضـــبه هذا « فأمر الا يزال وجهها يلثم بألسنة الشمع وهى تستغيث فلا يرحمها حتى هلكت » وأدهم ينتقد فى شدة الذين يصرفون النظر عن نواحى النقص فى شـــخصيات العظماء ويرى أن الحقيقة بجمالها أحق وأولى ، وسنقف عند هذا الجانب فى تقدير الأبطال عند تناول الأحكام التاريخية على الأبطال ٠

وخلاصه القول فى تراجم أدهم أنه كانت تسيطر عليه روح الصدق والامانة ، والاعتدال فى الرأى ، ماوسعه ذلك ، والاتزان فى القصد ، وهى مقومات لازمة فى كتب التراجم وكتابها ٠

نظراتــه فى أبطال التــاريخ

ومما يتصل بفن كتابة التراجم ، الحديث عن أصحاب التراجم ، أو الأبطال والنظريات المفسرة لحركتهم فى التاريخ ٠

وابتداء نتساءل : ما الذى يحرك هؤلاء الأفذاذ الى فعل الأفاعيل ، والنهوض بالأعباء الجسام ، وخوض الحروب الدامية ، وتحطيم العروش العالية ، فلا يقر لهم قرار ، أو يخلدون الى هدوء قبل أن يفرغوا من تحقيق ما جاهدوا من أجله ، وادراك الغايات التى حددوها لأنفسهم ؟

صـــراع الأفـــكار :

ونلتمس الاجابة على هذا السؤال عند على أدهم حيث فسر أحداث التاريخ وهزات واقعاته بما أطلق عليه « صراع الأفكار » فتنشب المعارك الحامية ، وتشتعل الحروب المدمرة بين الأمم « لتغليب فكرة من هذه الأفكار على الأخرى » وهذه الفكرة هى التى توحى للبطل بتصرفاته ، وتدفع به الى الحركة الدائمة ، والكفاح المتصل ، وتخطى العوائق والصـعاب ، والسمو على العوامل المناهضه له ٠ ويظل البطل يجاهد فى سبيل تحقيق « الفكرة » التى آمن بها ، أو العقيدة التى أخلص لها ، حتى يدرك غايته أو يموت دونها ٠

ويفطن أدهم الى ما يسميه « الغريزة التاريخية » التى تستحث همة الأبطال حتى تتوهج عواطفهم ، وتتقد أذهانهم لتغليب الأفكار التى عملوا على اعلائها وسيطرتها ٠

وبناء على هذا فان مقياس عظمة الأبطال عند على أدهم هو مدى تحقيقهم للأفكار التى تشبعوا بها ، وتشيعوا لها ، وأدوا مطالب عصرهم وأقوامهم بفرضها ، ومن ثم فان عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش من الأبطال العظماء لأنه حقق فكرة كبيرة بتأسيس الدولة العربية الاسلامية الأموية فى الأندلس ، ولم يقم وزنا لمطالبه العاطفية أو لذاته الحسية ٠

ولا يؤيد على أدهم كل « فكرة » يؤمن بها البطل ويسخر امكاناته لبلوغها وتحقيقها ، فانه يشترك فى هذه « الفكرة » توفر الجانب الأخلاقى : والنفع الانسانى حتى تكون فكرة عظيمة ، وبالتالى يكون معتنقها عظيما

ممتازا · ولم يقصر صاحبنا فى توجيه النقد للأفكار الشاذة والتصرفات السيئة · والأبطال المدمرين ·

وكان لقراءات على أدهم الغزيرة فى الفكر الألمانى وبخاصة « هيجل » العامل الأكبر فى التأثر بما قيل فى « الفكرة » التى تستقر فى وجدان البطل وتحركه نحو اثباتها اثباتا عمليا · ويشير أدهم الى ماغلب على التفكير الألمانى فى بدايات القرن التاسع عشر بقوله : « ان كل أمة من الأمم ، وكل عصر من العصور ، وكل حضارة من الحضارات لها فكرتها الخاصة الغالبة المستعلية ، وهى تستمد سماتها من هذه الفكرة العامة ، ويمكن أن نستخلص الفلسفة والدين والفنون وجميع عناصر الفكرة الرئيسية العامة التى ينبع منها كل شىء كما ينتهى اليها كل شىء »(١) ·

ويقول هيجل : « ان الرجل العظيم فى العصر هو الذى يستطيع أن يعبر عن ارادة عصره فى كلمات ، ويخبر عصره ماهى ارادته وينيرها · ما يفعله هو قلب وروح عصره · انه يحقق عصر »(٢) · ونستطيع أن نقرأ كلمات مشابهة أو آراء مماثلة لعلى أدهم فى تقديمه لكتابه « صقر قريش » حيث يقول : « فمقياس عظمة هؤلاء الرجال هو أنهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التى كانت تضطرب فى أحشاء الزمن ·· » وهذا التشابه الشديد بين قول أدهم ورأى هيجل يدل على افادته من الفكر الألمانى فى هذا الشأن ·

ومن ناحية أخرى كان لاعجابه الشديد بالكاتب الانجليزى كارليل صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » أكبر الأثر فى تعميق فكرته عن البطل المحقق لأفكاره ·

وعندما نقول أن أدهم تأثر بهيجل أو كارليل أو غيرهما من المفكرين لا يعنى أنه ينقل آراء الآخرين ، فالانسان لا يستميله شىء أو يجذبه الا اذا كان لهرصيد فى نفسه ، ونداء من وجدانه ، ولا يعضد فكرة أو يناصرها الا اذا أقرها عقله ، فحينئذ تجد أرضا خصبة فتنمو وتثمر ·

الحتمية والارادة الحرة :

واذا كان أدهم يؤمن بحتمية حدوث بعض الواقعات ، الا أنه لا ينكر الارادة الحرة عند أبطاله ، وحرية الارادة تنبثق من الذات وتتجه نحو الهدف لتحقيقه ، وترتبط قدرات البطل بارادته ونوع فعله ، فان الارادة بغير قدرات لا تعنى شيئا ، ولا تصل الى نتيجة ، لذلك فأدهم يفيض فى ذكر تضافر قوى العظماء ، وامكاناتهم فى تحريك الأحداث لصالحهم ، أى فى تحويل مسار الأمور فى اتجاههم ·

وأبطال على أدهم من أمثال عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن

---

(١) تراث الانسانية المجلد الاول .

(٢) كتاب « ما هو التاريخ » لادواردكار وترجمة ماهر الكيالى .

الناصر وأبى جعفر المنصور رجال من أصحاب الارادة الحرة ، والعواطف المستعلية والقلوب التى تسخر من الشدائد ، ولا تطاطىء أمام العواصف، ولا تخلد الى راحة الا بعد نيل المراد •

والانسان رغم توقه الى السلام فانه يسلك الى الحرب مسالك وعرة ، وأصحاب النفوس الجبارة لا يقبلون السـلام • فى ظل أوضاع لا تعلى مكانتهم ، وان مايرغبون فيه هو أن يكونوا لأنفسهم تاريخا يروى ، وشهرة مدوية تمتد الى ما بعد عصورهم ، لذلك هم يسلكون الى الحرب لتحقيق المجد الأثيل ثم يجلسون فى هدوء على قمة شامخة ، والناس تدين لهم بالولاء وتقدر فيهم كفاحهم وبطولتهم •

ومع كل ما يقال فى حـرية الارادة ، وقوتها عند الأبطـال فانهم لا يستطيعون الخروج على قوانين الطبيعة ، ولا على القوى الكامنة فى النفس الانسانية التى حباها الله لخلقه •

أما القائلون بالحتمية التاريخية أو بالحتمية الاجتماعية ، انمـا يلغون حرية الارادة عند الفرد ، أو عند البطل التـاريخى ، ويجعلونه يتصرف وفق معطيات تاريخية محددة ، وظروف اجتماعية معينة ، وكأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ، وهذه الحتمية التى يقول بها الماديون بما يذهبون اليه ، انما يجافون الحقائق ، ويزيفون الظواهر الشاهدة بأثر البطل فى الأحداث الجليلة التى تتطلب قوة الارادة وحريتها •

أنواع البطـولة :

والأستاذ على أدهم الذى كثرت دراساته فى الرجال الأفذاذ ، واتسعت مداركه لهم ، وتنوعت معارفه عنهم ، حتى كأنه يعرفهم ، استطاع بالمعينة وثقافته التاريخية أن يميز بين عدة أنواع من مشاهير القواد الذين أثروا فى حركة التاريخ فنراه يفرق بين من يبنى منهم ومن يهدم ، ويميز بين تقدير العظمة وتقدير القوة فى هدى وبصيرة • ويتخذ مقياسا دقيقا يفرق به بين الأبطال العظماء وغيرهم من الأبطال الأقوياء ، يتلخص فى أن العظيم من يترك الدنيا أحسن حالا مما كانت عليه وفى هذا يقول(٣) « والقوة الروحية والامتياز الفكرى هما أساس العظمة والبطولة الصـادقة ، وفى بعض الأحيان تعد القوة الأخلاقية معيار العظمة » ومن خلال هذا المفهوم يتردد فى اضفاء صفة العظمة على رجل مثل تيمور لنك لأنه مر على الدنيا مرور العواصف المدمرة وتركها بعده أسوأ مما كانت عليه قبله • وفى هذا المجال يفصل صاحبنا بين نوعين آخرين من الرجال الأبطال ، رجال صـنعوا التاريخ ووجهوا مسار أحداثه ، ورجال صنعتهم الظروف وتسنموا مكانة عالية بغير جهد أو عناء ، أو بين رجال أشادوا الصروح العالية ، ورجال وجدوا الصروح مشيدة ، وكان ثناؤه وتقديره للكبار الصانعين وليس للصغار المصنوعين •

---

(٣) مقدمة كتاب « أبو جعفر المنصور » تأليف على أدهم •

وعلى ذكر العظمة يوضح أدهم لونين منها : أحدهما « عظمة المردة الجبابرة » الذين غيروا بحروبهم وجه العالم مثل الاسكندر ويوليوس قيصر ونابليون والآخر « عظمة الذين قدموا للعالم قيما أخلاقية » وهم هداة الانسانية وأنبياء الله من أمثال بوذا وعيسى ومحمد (ص)(٤) ٠

وقد وفق أدهم فى اطلاق صفة « العظمة » على النوع الثانى لأن أعمالهم تشتمل على الهداية والتنوير ، أما النوع الأول فقد كنت أود أن يطلق عليه صفة « البطولة الجبارة » لأن أعمال نابليون واضرابه لا تخلو من سفك الدماء والتدمير ٠ فالأخلاق ملازمة للعظمة ، والقوة والجبروت من صفات البطولة ٠

بين كارليل وامرســــون :

وفى مجال البطولة هناك من يقدرها ، وهناك من يقدسها ، وهنا ينشأ سؤال أو أكثر ٠ هل البطل جزء من التاريخ أو هو صانعه ؟ وهل هو ممثل عصره ومجتمعه أو هو صانع عصره ومجتمعه ؟

سؤالان هامان واجها كتاب التاريخ والتراجم على مر العصور ، واختلفت اجاباتهم من حين الى حين ٠ وفى اعتقادى أن هذا يرجع الى شيئين : أولا شــخصية كاتب الترجمة ومدى فهمه للحــركة التاريخية ومعتقداته الدينية والسياسية والاجتماعية ٠ ثانيا : شخصية صــاحب الترجمة ومدى تأثيره فى الأحداث ، وتغييره فى الأحوال ، أو تمثيله لأبناء أمته ، فان النظرة تختلف من زعيم الى زعيم ٠

وفى اجتهاد على أدهم لفهم طبيعة الأبطال وأدوارهم فى التاريخ كما تعرف عليها فى تصرفاتهم ، وجليل أعمالهم ، وفى الوقوف على العوامل المحركة لهم فى صنع الجديد ، يخيل الينا أنه كانت تتجاذ به فكرتان :

الأولى : فكرة كارليل القائل بأن البطل هو صانع الأحداث « وأن القدر ينطق على لســـانه ويستبين فى أعماله » بل يذهب الى مالا يمكن تصوره فى « عبادة الأبطال » ٠ وقد كان على أدهم معجبا بكارليل وكان يصف بعض آرائه بأنها « لامعة ومضيئة »مما يعنى تعاطفه معه ٠ ويقول على أدهم فى أول ترجمة له « صقر قريش » أن البطل هو الذى يحقق « الفكرة » أى هو الذى يصنع التاريخ وهذا القول يقترب بعض الشىء من نظرية كارليل الذى يرى أن الأبطال هم قواد الانســـانية وصـــانعو تاريخها ٠

وتصوير على أدهم للداخل والمنصور العباسى وعبد الرحمن الناصر يستبين منه أنهم قواد من طراز نادر جدا ، فهو يصف المنصور بأنه « انقاد له الصعب ووطد الأساس » ويصور الداخل تصويرا يذهل اللب ، يقول

---

(٤) كتاب « المنصور بن أبى عامر » لعلى أدهم ٠

عنه « ٠٠ وقد مر بهذه الدنيا كزائر غريب الشأن مقبل من العوالم الخفية يخرج من الفوضى نظاما ، ويخلق من الضعف قوة » ويرى أن الناصر « من طراز عبد الرحمن الداخل » ٠ وقول أدهم ان الداخل « أقبل من العوالم الخفية » قريب من قول كارليل عن البطل « ان القدر ينطق على لسانه » ٠ فتصويره لأبطاله فى كثير من مواقفهم بأنهم بناة عتاة صانعو أحداث يفسر جزءا هاما من نظرته الى أبطاله ٠

والثانية : فكرة امرســـون الكاتب الامريكى صاحب كتاب « ممثلو الانسانية » والذى يؤكد فيه أن الأبطال هم نواب الانسانية ، وأن الشعوب والجماعات تمهد لهم سبل النجاح والرقى ، فهو لا يرى أنهم قواد وانما هم نواب عن شعوبهم يمثلونها فى كل اتجاه ، وهو لا يطلب الكمال لأبطاله فيذكر معايبهم ٠

والرأى عندى أن فكرة امرســـون لا تخلو من صـــواب ودقة نظر ووجاهة ، ولكن البطل لا يمثل فقط القوى الشعبية والاجتماعية بل قد يوجهها ويوجدها ويستحثها على الحركة والفعل فى كثير من الأحيان ٠ كما أن النزعة الشخصية أو النظرة الذاتية عند البطل تملى عليه تصرفات قد لا يقبلها شعبه ، فكيف يكون ممثلا له ٠

ويعلق على أدهم على كتاب امرسون بقوله : « ٠٠ العظمة فى رأى امرسون ليست شيئا قائما بذاته منفصلا عن الانســـانية ويلزم أن يكون العظيم متصلا بنا وتتلقى منه حياتنا ما يعدها بالبيان والتفسير(٥) ٠

ويقول كذلك : « على أن فرط تقديرنا للعظيم لا يخلو من خطر فقد تزلزل جاذبيته كياننا وتخرجنا من مستقرنا ، ولكن الذى يقينا من هذا الخطر هو اعجابنا بأبطال وعظماء آخرين يمثلون صفات جديدة وفضائل أخرى تحد من اعجابنا بمزايا غيرهم من الأبطال والعظماء ٠٠ »(٦) وهذه الكلمات تعكس لنا تفهم أدهم لآراء امرسون التى طامنت من الغلواء فى تقديس الأبطال على مذهب كارليل ٠

وأرى أن على أدهم قد أفاد من الفكرتين فحينما يغالى فى تقدير العظمة عند الأبطال متأثرا بأفكار كارليل ، فان امرسون يحد من اسرافه ، ويصير التقديس للابطال تقديرا ٠ فتأتى كتاباته عن رجاله الأفذاذ الممتازين متوازنة فيها الاشادة بالعظمة ، وذكر المواقف الصارمة ، والادوار النادرة والمناقب الجليلة ، وفيها تصوير البطل الممثل لعصره ، المستجيب لتطلعات بيئته ومجتمعه والنائب عنهم فى مجال أو أكثر مع سرد المعايب ، واظهار النقائص ٠

واذا كان لابد من كلمة فى هذا المقام فاننا نرى أنه من الصائب الا نفرض نظرية بعينها فى تفســـير البطولة والعظمة ، وذلك راجع الى

---

(٥) تراث الانسانية المجلد الثالث ٠

(٦) المصدر السابق ٠

اختلاف الظروف والعصور التى ينشأ الأبطال ، واختلاف نفوسهم وقدراتهم ، وتباين انجازاتهم ومقدار ما تشتمل عليه هذه الانجازات من رصيد الأخلاق · فنظرية امرسون قد تنطبق على أبطال بعينهم ، يتوافر فيهم شروط التمثيل النيابى لمجتمعاتهم ، ونظرية كارليل قد تتناسب مع طبقة أخرى من الأفذاذ الصناديد ، ولو كان كارليل نزه نظريته عن عبادة الأبطال، ورأى أن نقدرهم بدل أن نقدسهم لكان أوفق ، فالعبادة للخالق وليس للمخلوق ، وعلى أدهم ربما يكون قد غالى فى تقدير بعض أبطاله الا أنه لم ينزلهم منه منزلة القداسة أو العبادة ·

الحكم على الأبطال :

فهو اذا كان يرى البطل انسانا نادرا من طراز خاص ، ومن نمط نفسي مختلف جادت به الطبيعة الجائدة ، الا أنه لا يخرجه عن دائرة الانسان من حيث امكان وقوعه فى الزلل والتورط فى الخطأ ، ومن ثم كان يظهر معايب أبطاله من خلال سيرهم الحافلة ·

وهذا يقودنا الى أحكام على أدهم ومواقفه من أبطاله ، والحكم فى القضايا المعروضة أمر يتصدى له الكتاب ، ولكن يجب أن نعرف أن الحكم قد يصيب وقد يخطيء ، أما العرض الجيد فانه يؤدى بنا الى حكم صائب فى معظم الأحوال · والمؤرخ الذى يعرض الأحداث ومشاهد التاريخ لا يصح أن يقال عنه انه لا يعرف أن يصدر حكما · أو أنه عاجز عن اصداره ، ولكن عرضه الأمين يحمل القارىء الى الحكم ويشركه الرأى · ومن هنا يجب على المؤرخ الا يقحم حكمه ، ولكن عليه أن يجعل عرضه للأمور ينم على حكمه فيها ، والانسان بطبيعة الحال لابد وأن يحكم ، ولكن عليه ألايكون جازما فى حكمه ، لأنه من الجائز أن نصدر حكما ثم يثبت خطؤه نتيجة ظهور وثيقة سياسية أو مخطوطة مطوية ·

والطريقة التى ارتضاها أدهم في تراجمه (فى معظم الأحوال) هو العرض الشائق ، والتصوير الرائع ، والتعليق الموضح ،و كل هذا يجعلك لا تمل هذه الطريقة ، ويحملك على تتبع الموضوع والاهتمام بتفاصيله ، وهنا يصير العرض التاريخي الجيد حكما مقبولا ، ولهذا العرض مزية هامة تتجلى في ايضاح جملة من المشاكل ، وتفسير عديد من الأحداث التى ظلت غامضة لفترة طويلة على كثيرين، ويرى على أدهم : « أن اسناد وظيفة القاضى الى المؤرخ ليس من الصواب لأن عمل القاضى أن يفصل فيما بين المتهم والشاكى ، ويحكم بالادانة أو البراءة · وعمل المؤرخ يختلف عن ذلك فهو يراقب الأعمال والرجال ويصف ما يرى دون أن يمدح أو يذم » ·

ومن ثم فالصور التى نطالعها عن حياة الأبطال الذين ترجم لهم أدهم تتجرد من هوى النفس ــ فى الغالب ــ فلا يطلب الأثنية الى أبطاله ، ولا ينتدب لهم المناقب والمكرمات · والبطل عنده مزيج من الفضائل

والرذائل ، والمزايا والمثالب ، ونشعر بجرأته على مواجهة الحقيقة التاريخية ، ونحس بسعة الصدر لتقبل أخطاء العظماء وردها الى العوامل التى أوجدتها · وبهذا لا يباعد فى رسم ملامح الشخصية بين الصورة كما تكشف عنها الأحداث ، والصورة التى يقدمها فى كتاب من تدبيج قلمه ·

وهناك كثير من كتاب التراجم يتخذون موقفا معينا من صاحب الترجمة فيذكرون جانبا واحدا هو الجانب المضىء ، ويغفلون الجانب المعتم وربما يكون مرد هذا الى أن الكشف عن كثير من خفايا النفوس والأخطاء يقف أمام اثباتها أو اظهارها اهتزاز ثقة جماعات كثيرة ظلت مقتنعة بقدسية بطل دينى واعتقاد الناس بارتفاعه عن المزالق والزلات · ذلك أن الخروج عن المألوف المحفوظ عن هؤلاء الأبطال أو الأولياء يمثل صدمة لتلك الجماعات لا يمكن احتمالها ، بل قد تولد ثورة فى نفوسهم وبخاصة اذا كانت تلك الخطايا لها صلة بمعان دينية ، أو قيم روحية ، ومن ثم فان كثيرا من الكتاب يعرضون عن اثبات المثالب ، ولكن مما لاشك فيه أن ابراز الحقائق مهما تكن غير محتملة من شأنه تحرير العقول فى أجيال قادمة من الخرافات الدائية ، ومعتقدات الآباء والأجداد البالية ·

وما نود قوله أن الترجمة لا تتم الا بذكر جوانب الانسان المتعددة ، وقد صور أدهم طريقته فى كتابة التراجم فى مقدمة كل ترجمة من تراجمه وكان يؤكد أهمية عرض الجانبين · يقول فى مقدمة كتابه عن « المنصور بن أبى عامر » : « ولم أحاول أن أصوره ملاكا طاهرا ، أو قديسا متألها أو بطلا خالص البطولة ، نقى النبل ، كبير القلب ، وليس لزاما على كاتب السيرة أن يديج المدح ، ويصوغ عقود الثناء ، أو أن يقف موقف الدفاع والمنافحة ، ولو تصورنا المنصور على هذه الصورة لوجدنا له أعمالا لا تتفق مع مقتضيات البطولة ومستلزمات النبل » ثم يقول : « ان اخفاء نواحى الضعف فى البطل ، أو الاغضاء عن هفواته وهناته هو الى حد ما محاولة لتجريده من انسانيته وجعله شبحا من أشباح الوهم أو طيفا من أطياف الخيال » ·

واذا كان من الواجب أن يتعاطف الكاتب مع موضوعاته ، ويطرب لأقوال عظمائه ، فان هذا يجب الا يكون على حساب الحقائق ، وماتنطق به الظواهر ، وينبهنا على أدهم الى الحب الأعمى ، والحب البصير فى كتابة التراجم فى كتابه عن المعتمد بن عباد فيقول : « وواجب المؤرخ أو كاتب السير فى رأيى أن يبذل جهده فى رسم الأضواء أو الظلال فى أمانة واخلاص ،وقد لا يستطيع التخلص من ذاتيته وأهوائه وميوله ووجهات نظره ومعاييره الخاصة ، ولكن هناك مع ذلك فارق كبير بين الحب الأعمى والحب البصير ، وما أحسب أن الانسان يستطيع أن يفهم أى شخصية جلت أو هانت ·· الا بقليل أو كثير من الحب والعطف ، فان الكراهية الصماء تسد منافذ الفهم ، وتقيم بيننا وبين الفهم الصادق ، والتقدير الصحيح حجابا صفيقا وسدا منيعا » ·

تلك هى العناصر التى تشكل منهج على أدهم فى كتابه التراجم ،

وتحدد نظراته الى أبطال التاريخ وعظمائه · ولقد صور أبطاله من خلال فكرته عن البطولة ودورها فى الحياة العملية ، وقد توخى ما توخى فى سبيل ابراز قوى النفس وجهادها الحثيث فى ســـبيل تحقيق أطماعها وأحلامها ، وعمل بكل طريقة على أن يجلى معالم تاريخية غمضت حينا من الدهر ·

وما أطلت الحديث فى هذا الفصل الا اعلاما بأن الرجل قليل الأقران ، وفارس جولة فى هذا الميدان ، وأعوم من كثيرين غيره فى هذا المجال ، وتراجمه لا تكفيها مشاهدة ذاهبة ، ولا لمحة عاجلة ، حقا لقد فازت منه التراجم بالعالم الواثق من علمه ، والمترجم المدقق فى مادته ·

الفكر السياسى

على أدهم ليس سياسيا ، أو من رجال الدعاية السياسية ، كما أنه لم ينخرط فى حزب معين . ربما لأنه كان موظفا . وكم عوقب موظفون بسبب ممارسة السياسة عند تقلب الأحزاب على الحكم !! ولكن أغلب الظن أن طبيعته لا تتجاوب مع الصخب السياسى ، والجدل الحزبى ، والهجوم والدفاع ، والقتال والنزال فى ساحات الصحف الحزبية .

وقد كتب مقالا عن سعد زغلول ، باعتباره رمزا للوطنية المصرية التى تطالب بالاستقلال ، وليس باعتباره حزبيا وفديا . وان كان الوفد فى ذلك الوقت يمثل الوطنية .

والعصر الذى عاشه أدهم يشد المرء الى السياسة . فقد وقعت الحرب العالمية الأولى ، وسقطت القيصرية فى روسيا وتولى الشيوعيون زمام الحكم ، والغيت الخلافة الاسلامية على يد مصطفى كمال ، وظهرت النازية فى ألمانيا ، والفاشية فى ايطاليا ، وعلى المستوى العربى حل الانجليز والفرنسيون والطليان محل الترك . وفى مصر عزل الخديو عباس ، وتأثرنا بالحربين العالميتين ، واندلعت ثورة ١٩١٩ ، وصدر تصريح ٢٨ فبراير ، وقامت الأحزاب السياسية .

هذه كلها أحداث سياسية مروعة وقعت فى عصر صاحب الترجمة ، واستدعت المفكرين الى تناولها ، وهناك من عالج هذه الحوادث الكبيرة بالممارسة السياسية المباشرة أو العملية مثل هيكل باشا والعقاد وطه حسين وتوفيق دياب وغيرهم اذ دخلوا فى صراع حزبى ، وعراك سياسى اشتبكت فيه الأقلام ، وعلا فيه الصياح . وهناك من عالجها بالفكر واعمال العقل فراح يحلل ويعلل ويفسر مثل على أدهم .

لقد مارس صاحبى السياسة بالطريقة التى تتجاوب معها نفسه ، ويفيد منها فكره ، فقام يعرف الناس بالمذاهب السياسية من ديمقراطية وأتوقراطية ، وفوضوية ، ويعرج على طلائع الديكتاتورية الحديثة ممثلة فى الشيوعية والنازية والفاشية ، ويحذر منها ، ويعدد مزالقها ، ويحصى معايبها ، وفى الوقت نفسه يحيى الديمقراطية ، ويسرد مزاياها ، ويثنى على أعلامها ، ويدافع عنها ضد خصومها واعدائها .

ان كاتبنا مارس السياسة ولكن على طبيعته وطريقته ٠

وكما قلنا أن الأحداث التى وقعت فى زمن المؤلف تدفع المرء الى ممارسة السياسة بالعمل أو بالفكر فقد حكمت معظم دول أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى حكما مطلقا كانت الكلمة الأولى والأخيرة فيه لشخص يستبد برأيه ، ويتسلط بنفوذه ، ويبطش بأية أصوات مناوئة ٠ ففى بولونيا أطاح بلسودسكى عام ١٩٢٦ بالحكم النيابى وصار ديكتاتورا من وراء الستار ، وفى تركيا سيطر كمال أتاتورك على الموقف ونصب نفسه حاكما بأمره بعد الغائه قوانين الشرع الاسلامى ، وفى أسبانيا حكم الجنرال بريمودى رفييرا حكما استبداديا لعدة سنوات ، وفى يوغسلافيا حكم الملك اسكندر بطريقة تعسفية حديدية حتى قتل ، هذا بخلاف الحكم المطلق فى روسيا القيصرية ثم روسيا الشيوعية ، وايطاليا الفاشية ، والمانية النازية

حـرية الفرد وسـيادة الدولة :

وقد دعا هذا الموقف على أدهم الى تأليف كتاب يتناول فيه « المذاهب السياسية المعاصرة » ويشـرح ظروف نشأتها ، ويبحث عن جذورها وأصـولها ويتلمس تأثير الفكر الفلسفى اليونانى القديم فى الممارسات السياسية الأوروبية الحديثة ٠

ولما كانت النظم السياسية التى أشعلت الحروب فى النصف الأول من القرن العشرين تعتنق مبدأ « سيادة الدولة » واهمال التطلعات الفردية ، فان على أدهم أخذ ينقب عن الموارد الفكرية الأولى فى هذا الشأن ٠

ونراه يرد فكرة سيادة الدولة المطلقة الى مصدرين :

● الأول : فكرة استغراق الدولة للمجتمع بأسره واستقلالها بذاتها ، ومنافستها للدول الأخرى المجاورة الى حد العداء كما يذهب الى ذلك أفلاطون وأرسطو ٠

● والثانى : مستمد من تصور فلاسفة اليونان لطبيعة البشر ٠ فقد رأى أفلاطون وأرسطو أن الفرد يقوى وينمو فى ظل المجتمع ٠ ومن ثم فان الدولة تتكفل به وتحميه وتضمن حقوقه ٠ وعلى أساس هذه الأفكار القديمة رأى هيجل أن حرية الفرد تكون فى حـدود المجتمع ، وارادته مرتبطة بالارادة العامة ٠

وينتقد على أدهم فى كتابه « المذاهب السياسية المعاصرة » فكرة « السيادة المطلقة للدولة » ويرى أن هذه الدولة المطلقة السيادة تستوجب تمثيل جميع الأفراد الذين تتكون منهم ويضيف : « وليس هناك ما يوحى الى الفكر أن الدولة تمثل ارادات أفراد الدول الأخرى ، فهى من ثم غير قادرة على كل شىء وليست ارادتها اذن فوق كل ارادة » ونراه يذهب الى أن الحق الذى تعطيه الدولة لنفسها بالسمو فوق كل ارادة يجعلها تبرر أفعالها الشائنة وانعتاقها من الواجب الأخلاقى وتأثر الدول الأخرى بهذا ٠

فتستند سياستها الخارجية الى الاعتداء على حياد الدول المجاورة أو البعيدة بحجة أن سلامة الدولة تستلزم مهاجمة دول أخرى . وفى مجال التطبيق عاب على الانجليز تحطيمهم الأسطول الدانمركى سنة ١٨٠٧ ، وندد بالألمان لاعتدائهم على بلجيكا سنة ١٩١٤ من منطلق هذه النظرية ، ونضيف الى ما قاله أدهم تدمير اسرائيل للمفاعل الذرى العراقى وغير ذلك من تجاوزات الدول التى تعتنق أفكارا استبدادية .

وانتقادات أدهم تتكىء على الآداب الدولية واحترام حدود الدول الأخرى وحيادها وحقوقها الاقليمية ، أى أنه يعاير التصرفات السياسية بعيار أخلاقى ، وينظر اليها من زاوية أدبية . وفاته فى مجال كلامه أن السياسة تستمد مقوماتها من قوة الدولة الحربية والاقتصادية وليس من أخلاقها ، ولو كان البلجيك فى قوة الألمان عام ١٩١٤ لتردد الألمان فى انتهاك حياد البلجيك . فقوة الدولة تغرى بفرض سياستها وسيادتها على الدول الضـــعيفة المجاورة ، وحتى على الدول البعيـدة بعد تطور نظم التسليح . وليس هذا حكما فرديا ، وانما هو استقراء تاريخى .

ويمضى أدهم فى انتقاد نظرية السيادة المطلقة للدولة فيرى أن هذه النظرية تناقض فكرة الحرية الشخصية « لأنه عندما ينشب أى خلاف بين الدولة والفرد ، فانه يفترض مقدما أن الدولة فى جانب الصواب . وأن الفرد حقيق باللوم ، ولا سبيل الى رفع صوته واسماع كلمته » ويستطرد كاتبنا فى أفكاره المثالية التى تشبه فكر « اليوتبيا » فيقول : « واذا سلمنا بأن من اللازم أن يعرف الفرد أن هناك مصلحة أسمى من مصلحته وهى مصلحة المجتمع والدولة ، فليس هناك ما يمنع من السير بذلك الى نهايته المنطقية والوقوف عند فكرة أن مصلحة النوع الانسانى قاطبة فوق مصلحة الدولة »(١) .

وآراء على أدهم فى عمومها تؤيد ســـيادة الدولة صاحبة القوة الحامية ، فى اطار الواجب الأخلاقى بحيث لا تجور على أفرادها أو على غيرها من الدول بمبررات لا تقرها الآداب الانسانية . وينكر سيادة الدولة عندما تحيد وتطغى .

ولايمكننا أن نعيب أقوال أدهم ، ولكن الحكومات الفاتكة كالنازية والفاشية ، والطاغية مثل الشيوعية والتى كتب هذا الكلام فى ظل سيادتها وســـياستها لا يجدى معها مثل كلام على أدهم : فالدول التى تحصـــد الأرواح مع مطلع كل صباح بالألوف ، وتبتلع الدول المجاورة والبعيدة وتحطم نفوس أبنائها وسائر مقومات المجتمعات لا تصحح مسارها المنحرف كلمات فى الأخلاق ، وحكم تنطق بها الآداب .

وعلى هذا فأدهم يعبر عن عقل نظرى ، ويجنح الى ماهو معقول بالقوة فينكر ماهو حاصل بالفعل . ولأنه مفكر فانه لايملك الا انتقاد العقل

---

(١) المذاهب السياسية المعاصرة لعلى أدهم .

العملى ، والفكر المادى ، والسياسة الحائدة • وفضلا عن مثالية فكره فانه يعبر عن أناس مغلوبين على أمرهم ، مقهورين بسـيف الدولة المطلقة ـ السيادة •

الديكتاتورية :

ويأسى على أدهم من ظهور الزعامات المستبدة فى القرن العشرين ، ومن استعلائها ، واستفحال شأنها ، وانشغال الناس بعبادتها وطاعتها • ويرى فى ظهورها نكسة انسانية •

ولكنه لم يقف عند اطلاق اهاته ، وترديد عبارات تحكى تباريح نفسه الحزينة لما جرى فى المانيا النازية ، وايطاليا الفاشية ، وغيرهما من الدول الديكتاتورية ، وانما راح يبحث عن العلل التى مهدت لظهور الطغاة •

واذا كان هناك من قال بأن سبب ظهور هذه الزعامات المتألهة هو زيادة عدد سكان دولهم ، وطغيان السلطة التشريعية على السلطة التنفيذية فى العصور الحديثة • فان أدهم يرى أن الأمر أكبر من ذلك •

فالنازية تستمد مقوماتها من الفلسفة الألمانية حيث يرى هيجل أن الدولة « ظل الله فى الأرض » ، واعتبر نيتشه الديمقراطية والاشتراكية مظهرين من مظاهر آداب العبيد وأخلاق الضعفاء ، وكان من دعاة القوة وايقاظ الهمم ، وثورة هتلر مستمدة من آراء هوستن ستيوارت شمبرلين الذى غالى فى حملته على اليهود وراح يتحدث عن الأصل الألمانى للمسيح •• وأشار أدهم الى سياسة بسمارك المستندة الى الدم والحديد •

كذلك يرد ظهور الفاشية الى تيار الفكر اللاتينى الذى يمثله عدد من الفلاسفة من بينهم برجسون القائل بأن قوة الحياة تعمل فى الانسان وعالمه الأدبى بتسليح غريزته ، والهام عاطفته ، ويتحدث عن الوثب المفاجىء ، والقوة المسعفة ، وهى الفرد الممتاز الذى تتمثل فيه شهوة التقدم ونزعة التجديد • ومن ممثلى الفكر اللاتينى سوريل الذى تأثر بماركس وبيرجسون وظل محتفظا بفكرة الزعامة ، وفكرة الوثبة المفاجئة • وقد تأثر موسولينى بفكر استاذه باريتو الذى يرى أن التاريخ من صنع الصفوة الممتازة •

ويرى أدهم أن مجمل آراء برجسون وسوريل وباريتو تؤيد نظرية الزعامة الديكتاتورية حين تظهر « فائدة الوثبة التى تحدث من أثر القوة المتجمعة فى نفس الزعيم ودوافع الحياة المتجسـمة فيه ، وبها تستطيع الطبيعة أن تنقل الانسانية من مستوى الى مستوى رفيع مستعينة فى ذلك بعامل آخر يسميه سوريل وباريتو « عامل الأسطورة » والمقصـود به الأوهام التى تشد أزر الانسان وتقوى نفسه ، وتهون عليه لقاء الشدائد ، واحتمال الآلام فى سبيل تحقيق أحلامه •• وقد بدأ هذا التيار من الفكر اللاتينى فى فرنسا وتدفق منها الى ايطاليا وهناك بلغ القمة »(٢) ويضيف

---

(٢) المصدر السابق •

أدهم الى هذا ان تاريخ ايطاليا كان دائما مسـرحا لظهور الشخصية الجريئة والزعامات غير المترددة فى الدين والسياسة ٠

والى جانب هذا الفكر الفلسفي العامل فى نفوس هؤلاء الطغاة يذكر أدهم أسبابا أخرى مثل الأحقاد القومية ، والبؤس الاقتصادى، والاضطراب النفسى الذى ألم بالمانيا وايطاليا ٠

ثم يتحدث عن الأسس النفسية التى تجعل الشعوب تستكين للحكم المطلق ، وتقدس الطاغية ، وتستسلم له ٠

وبالرغم من الموضوعية المطلقة التى اتبعها أدهم فى تعليله لنشأة الديكتاتورية فى العصر الحديث ، وتتبعه لمسارات الفكر الفلسفى منذ اقدم العصور فى هذا المجال ، ونزاهته اللائحة فى البحث ، ورد الظاهرة الى اكثر من فكرة فقد فاته أن يتحدث عن الجوانب الشخصية ، والعوامل النفسية ، والمكونات الداخلية لنفوس الطغاة المسـتبدين أمثال هتلر وموسلينى ٠ فالمرء لا يتأثر بأفكار معينة لوجاهتها ، وعلوها ، ودقة منطقها فقط ، وانما لابد أن تكون نفسية مهيئة سلفا لتلقى مثل هذه الأفكار ، وأن تكون الآراء المطروحة أمامه معبرة عن خلجاته ، مستقيمة مع منازعه وأعياله ، والا فلماذا قبل بها هؤلاء ونفر منها غيرهم ، ومنهم على أدهم نفسه ٠ اذن لابد لهؤلاء الحكام الخارجين عن الانسانية من استعداد فطرى، وأن نفوسهم من مراتب معينة ٠ لذلك أرى أن دراسة على أدهم القيمة عن ظهور الديكتاتورية فى العصر الحديث فى روسيا وألمانيا وايطاليا تنقصها دراسة الأسس النفسية التى جعلت هؤلاء الزعماء ينأون عن الاعتدال ، ويجنحون الى التطرف الشديد ، والتعصب الممقوت ، واللجوء الى الكبت والكظم ، وطبع الحياة بطابع فردى بحت ٠

وفى اعتقادى أن الأستاذ العقاد قد وفق فى هذا الجانب فى دراسته عن « هتلر » حيث تناوله من الناحية النفسية ، فسطر صفحات كثيرة فى بيان « طبائعه وأخلاقه ، وبواعث تفكيره وهواه »(٣) وتناول تربيته ونشأته وأطواره وكفاءاته وسيماه وعلاقته بصحبه ٠ ومهما يكن من أمر النتائج التى توصل اليها العقاد فى أمر هتلر ، فان المنهج النفسى يفيد فى تفسير كثير من ظواهر وبواطن النفوس المتسلطة المتجبرة ، ويكشف شيئا من دخيلتهم ، ويوضح معالم من شخوصهم التى لفها الغموض ٠

واذا لم يكن كل ما وصل اليه العقاد صحيحا فيما يتعلق بهتلر فان ما كتبه ساعد فى فهم أرجاء نفسه ، وعلة تسلطه ٠

ولا يمكن القول أن على أدهم لا يعرف جدوى المنهج النفسى ، وأثر النشأة والوراثة فى بناء الشخصية ٠ ففى بعض كتاباته(٤) يحدثنا عن العوامل التى تؤثر فى سلوك الانسان مثل تكوين جسـمه ، وتنشئته ،

---

(٣) هتلر فى الميزان للعقاد ٠

(٤) لماذا يشقى الانسان ٠

ووراثته ، ونصيبه من الذكاء والغباء ، وصفاته ومواهبه ، ومؤثرات بيئته .. فهو يدرك كل هذا ويقدر أهميته • ولكنه صرف اهتمامه الى الموضوع السياسى دون التغلغل فى شخصيات الساسة • وفى مثل هذه الأمور لابد من الربط بين الانسان وأثره : أو بين نفسه وفعله •

الديمقـــــراطية :

وعلى قدر ما أبدى أدهم ضيقا بالحكم المطلق وارتيابا فى أنصاره، أظهر ارتياحا للديمقراطية ، فامتدحها على هذا النحو : « .. ان الناحية السياسية من الديمقراطية أحسن الوسائل ، وأقوم ما انتهى اليه الذكاء البشرى حتى اليوم لتحقيق العدالة فى العلاقات البشرية ، وضمان انماء الشخصية الانسانية ، وهى أسلوب لحياة الفرد والجماعة يتيح لكل انسان ـ رجلا كان أو امرأة ـ ناضج السن مكتمل العقل أن يساهم فى تكوين القيم المسيطرة على حياة المجتمع الذى يعيش فيه ، ولا امتراء فى أن ذلك لازم لخير المجتمع وسعادة الفرد » •

ويبين أن الديمقراطية على النقيض من الحكم الديكتاتورى ، واذا كانت الاتوقراطية تنهض على فكرة فناء الفرد فى الدولة ، وتقديسه لها ، فان الديمقراطية ترى أن الدولة وجدت من أجل الفرد بما تهيىء له من فرص وتمكينه من اظهار قدراته ، وابراز مواهبه وتنميتها ، وتساعده فى تقرير نوع الحكم الذى يخضع له •

وعلى هذا النحو يمضى أدهم فى ابانة مزايا الديمقراطية ، ويغرى بها ،و يدافع عنها ضد خصومها ونقادها • فيرد على مقولات أعدائها من أنصار الحكم المطلق ، ويفند قول بسمارك : « ان خير الحكومات هى الحكومة المطلقة الخيرة الحازمة » ويناقش قيما سامية من خلال منظور ديمقراطى مثل « المساواة » و « الحرية » ويحاول تأصيل الفكر الديمقراطى وتحديد مكانته فى الأديان ، ويبرز الأزمات التى مر بها •

ويرى صاحب السيرة أن التفكير السياسى المبدع قد نهض فى العصر الحديث لتنوع النظم السياسية كما حدث عند اليونان ، أو عند حدوث اضطراب وتوتر مثل حالة ايطاليا فى القرن الخامس عشر ، والمانيا فى القرن السادس عشر ، وانجلترا فى القرن السابع عشر ، أو فى حالة تفاقم الخلافات الداخلية بين مختلف الطبقات • وهذه هى الشروط الثلاثة التى يراها أدهم دافعة لنهضة الفكر السياسى ، وتعدد نظمه •

الفوضــــــوية :

ويشرح على أدهم فى بحث قيم كتبه عن الفوضـــــوية نظـــرات الفوضويين الى السياسة ، وميلهم الواضح الى تحرير الانسان اجتماعيا

واقتصاديا من نفوذ الدولة التى اغتصبت السلطة ، وحدت من الحرية الفردية وحققت مكاسب لها وللطبقة الحاكمة . ويبين كيف سخر الفوضويون من الثورات التى قامت لاسقاط حكومات مستبدة . وكيف كانت الحكومات الثورية أشد قهرا على المجتمع من الحكومات التى أسقطت مثل ثورة كرومول والثورة الفرنسية والثورة الروسية . ويصحح أدهم مفهوما خاطئا عن الفوضوية ، فهى ليست حاطمة هادمة تشيع الارهاب ، وانما تدعو الى مجتمع بغير حكومة تسوده الحرية السياسية والاقتصادية وينهض ببنائه أفراد تجمعهم ارادة عامة تلقائية ترمى الى تحقيق الحريات، ويؤكد الفوضويون وبخاصة باكونين على قانون التعاون الانسانى الطبيعى .. والفوضوية تنتقد الديمقراطية لأنها تحقق ارادة الأغلبية بينما تسعى الفوضوية الى تحقيق الخير للجميع دون تمييز ، ويرد أصحاب هذا المبدأ السياسى على من يتهمونهم بالاستغراق فى الخيال والأحلام وعدم التبصر بالواقع العملى ، بأن من يقولون هذا هم الجديرون بهذه التهم لأنهم لايزالون يعتقدون أنه من الممكن أن تقوم حكومة لا تستغل المجتمع وتحد من حريته .

وقد ثار الفوضويون على الحكومات ودفعوا الى الثورة الاجتماعية بوسائل ارهابية . ويرد على أدهم مدافعا عن الفوضوية ضد من اتهموها بالعنف ، بأن ما القوه من قنابل كان قليلا وكان موجها الى الذين اضطهدوا الناس ، ويلوم أدهم الحكومات التى القت القنابل بالملايين وقتلت الألوف من الأبرياء ، وقد توقف ارهاب الفوضويين عندما اهتدوا الى الفوضوية السنديكالية (النقابية) التى تعنى بالثورة الاجتماعية الاقتصادية .

ويبدو من حديث أدهم أنه يعتبر الفوضوية مذهبا أخلاقيا فلسفيا ، ومن ثم راح يبحث عن مذاهب فلسفية أخلاقية قديمة قريبة من الفكر الفوضوى الحديث ، فذكر « الرواقية » التى تدعم الحرية الفردية وتحث الناس على عدم المشاركة فى الأعمال السياسية ، و « التاوية » التى ترى اقامة مجتمع بدون حكومة وترفض التسلط على الأفراد كما يقول زعيمها لاوتزى . ويشير الى ونستانلى الانجليزى فى القرن السابع عشر الذى تفهم المشكلات الاجتماعية وأدرك الفساد الموجود فى نظام الحكومة ، ثم يعرض لفلسفة جودوين الذى يرفض وجود حكومة لأن وجودها يقترن بالفساد ، وعلى هذا النحو يعرض لأفكار برودون وباكونين وكروبتكين وجوهان موست(٥) .

وهذا البحث المطول يعتبر مكملا لكتابه «المذاهب السياسية المعاصرة» ويكشف عن غزارة معارفه ، ودقة فهمه للفلسفة السياسية وتتبعها عبر العصور . ولا نجد انتقادات جوهرية لعلى أدهم على هذا الفكر الأخلاقى الفوضوى مما يعكس موافقة ضمنية عليه ، وان كانت هناك اشارات نقدية للفوضوية فى ثنايا كتابه « المذاهب السياسية المعاصرة » .

---

(٥) بحث عن الفوضوية نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية .

ويبدو أن صاحب السيرة مال الى الجانب الأخلاقى فى الفكر الفوضوى ، الذى يراعى مصالح جموع الناس وجلب الخير لهم ، ويتغنى بالحرية ويمجدها • ونراه يقول فى مستهل بحثه عن الفوضوية : « • وهذا النزوع العام الى الحرية الذى نتبين ملامحه ، ونلمح آثاره فى الأحداث المتتابعة خلال التاريخ يوضح لنا ان متابعة المثل الأعلى للحرية أصيلة فى الانسان ، وانها تقوى وتشتد كلما قوى شعور الانسان بشخصيته وذخائر قدرته ، وقد أعيا طغاة الاباطرة والقياصرة وسائر المستبدين والحاكمين بأمرهم التغلب على هذا النزوع الى الحرية واخماد انفاسه • وكان للحرية دائما الكلمة العليا فى النهاية » • فهذه الكلمات ربما تفسر لنا عدم انتقاده للفوضوية •

واذا كنا رأيناه – فيما أسلفنا – يأخذ على الدول عدم مراعاة الأخلاق فى سياستها الداخلية والخارجية فانه يرى فى موضع آخر أن « السياسة بوجه عام ممتزجة بحب المساومة ، والموازنة بين الأفراد وقبول الضرر الأقل دفعا للضرر الأعظم الأعم » •

ومع ذلك فانه يعود الى طبيعته الأخلاقية فيقول : « ان اليوم الذى تتهذب فيه الانسانية وترتقى وتسمو آدابها هو اليوم الذى يسود فيه العالم نوع واحد من الآداب ويزول الفرق بين الآداب الخاصة (الفردية) والآداب العامة (آداب الدول) ففى مثل هذا اليوم يأخذ العدل مجراه بين الأمم والأفراد على السواء »(٦) •

وعلى هذا تتفاضل المذاهب السياسية بعضها على بعض بقدر ما تشتمل عليه من مراعاة الجوانب الأخلاقية ، وتقديس الحريات الفردية والنزوع الى الخير العام • ويستمكن المبدأ الأخلاقى فى تقديره لمختلف التيارات الفكرية وبخاصة ما يتعلق منها بالسياسة ، وعندمايناقش فكرة « الغايات والوسائل » يؤيد القول المعروف « الغاية تبرر الواسطة » ولكنه يرى أننا اذا أحسنا اختيار غاياتنا ، فانها تلهمنا الأسلوب الملاءم لتحقيقها وسنرى أن هذا الأسلوب مشتق من نبعتها ، مصنوع من معدنها(٧) ومعنى كلامه أن الغاية النبيلة تكون وسيلتها كريمة •

****

وآراء على أدهم فى الفكر السياسى تنحصر فى ميله الى دولة يظلها القانون الذى يشارك فيه الشعب ، ويحبذ حكومة لا تضطهد الأقليات ، ولا تخنق أفكار الأحزاب المعارضة ، ولا ينفرد فيها فرد بالسلطة والسطوة وتعمل على تقدم المجتمع ، وترعى الرعية ، ويتمتع فى ظلها الفرد بالحرية السياسية والاقتصادية •

---

(٦) لماذا يشقى الانسان •

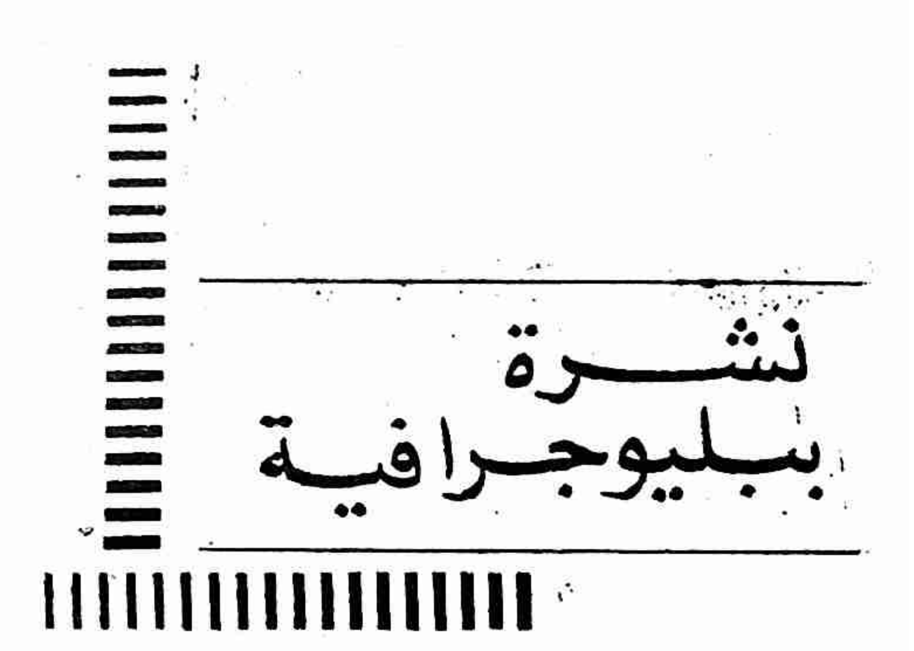
(٧) المصدر السابق •

وفى كثير من أقواله نجده يتحدث عن السياسة من منطلق فلسفى ، وليس من مفهوم عملى · وعلى وجه العموم نرى أن آراءه فى السياسة تساعد على التحضر ، فأكثر ما جاء كلامه عن التمدن الانسانى ، ولا نجده يهون من شأن القوميات ، فيظهر عطفا عليها ، ولكنه مع ذلك لا يجعل فكرة القومية تستـــتغرقه ، وتطبع تفكيره بطـابعها ، وتأخذه بعيدا عن الفكر الانسانى الرحب وفى هذا يقول : « يجب أن نضع حدودا للسيادة القومية بحيث لا تقضى القومية على تقاليد الحضارة » ونراه يقول كذلك « القرن العشرون يحكم الروابط الاقتصادية الحديثة · وهو قرن التفكير العالمى والاتجاه الأممى » ·

وهو ينبذ فى جملة ما ينبذ فكرة « نظام الأسياد » و « سيادة الدولة المطلقة » و « القوة الجامحة » و « الانسان الأعلى » الساخر من الضعفاء ·

ويبدو فى حديثه تأثره ببعض الآراء الفلسفية التى تشكك فى العقل المجرد من الأخلاق ، والتى تتحدث عن « الواجب » والمذاهب التى تتبنى « الفردية » والأفكار التى تنزع الى ، الحرية » ·

ولكنه وهو يتمثل الكتابات السياسية المختلفة لا يتأثر بكل ماجاءت به ، وانما كان يعدل فيها بما يوافقه ، ويلائم فكره ونزعته ·



- مؤلفــــاته
- دراسات عنه فى الكتب والدوريات

مؤلفـاته

اولا : التراجم والدراسات التاريخية :

١ ـ **صقر قريش :**

١٩٣٨ طبعة المتقطف والمقطم

٢ ـ **منصور الاندلس :**

سلسلة أعلام الاسلام ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى ٠

٣ ـ **متزينى :**

١٩٥٢ المعارف

٤ ـ **المعتمد بن عباد :**

١٩٦٢ سلسلة أعلام العرب ٠

٥ ـ **أبو جعفر المنصور :**

١٩٦٩ سلسلة أعلام العرب

٦ ـ **عبد الرحمن الناصر :**

١٩٧٢ سلسلة أعلام العرب ٠

٧ ـ **بعض مؤرخى الاسلام :**

١٩٦٦ مكتبة نهضة مصر

٨ ـ **صور تاريخية :**

١٩٦٥ الدارالقومية للطباعة والنشر ٠

٩ ـ **الهند والغرب :**

سلسلة اخترنا لك الحلقة ١٥

١٠ ـ شخصيات تاريخية :
١٩٧٧
١١ ـ تاريخ التاريخ :
١٩٧٧ سلسلة كتابك ـ المعارف ٠

ثانيا : الدراسات الأدبية والنقدية :

١٢ ـ صور أدبية :
ـ مكتبة نهضة مصر
١٣ ـ تلاقى الاكفاء :
١٩٤٤ دار المعارف ٠
١٤ ـ على هامش الأدب والنقد :
لم أوفق فى معرفة تاريخ صدوره ٠
١٥ ـ ألوان من أدب الغرب :
١٩٤٧ دار المعارف ٠
١٦ ـ العبقرية :
(سلسلة مقالات نشرت فى المقتطف فى الفترة من ٣٩ ـ ١٩٤١ ولم تجمع)
١٧ ـ النقد والجمال فى الروسيا :
(سلسلة مقالات نشرت فى مجلة الرجاء عام ١٩٢٢ ولم تجمع) ٠
١٨ ـ فصول فى الأدب والنقد والتاريخ :
١٩٧٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

ثالثا : دراسات فلسفية اجتماعية :

١٩ ـ بين الفلسفة والأدب :
١٩٤٥ ٠
٢٠ ـ لماذا يشقى الانسان :
١٩٦١ نهضة مصر ٠
٢١ ـ نظرات فى الحياة والمجتمع :
١٩٤٥ دار المعارف

٢٢ ـ بوذا (فصل كبير فى كتاب « هداة الانسانية » :
سلسلة اخترنا لك ٠

رابعا : دراسات سياسية :

٢٣ ـ المذاهب السياسية المعاصرة :
سلسلة اقرأ رقم ٩

٢٤ ـ حقيقة الشيوعية :
١٩٥٥ سلسلة اخترنا لك ـ دار المعارف ٠

٢٥ ـ الجمعيات السـرية :
١٩٥٤ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف ٠

٢٦ ـ الشيوعية والاشتراكية :
سلسلة المكتبة الثقافية ٠

٢٧ ـ الفوضـوية :
بحث كبير فى مجلة عالم الفكر الكويتية ٠

خامسا : كتب مترجمة :

٢٨ ـ محاورات رينان :
١٩٢٩ دار العصور للطبع والنشر ٠

٢٩ ـ روضات الفردوس :
١٩٤٩ مكتبة نهضة مصر ٠

٣٠ ـ فيراتا « مجموعة قصص »

٣١ ـ الخطايا السبع « مجموعة قصص » :

٣٢ ـ صديق الشدة « مجموعة قصص » :
١٩٧٤ الهلال ٠

٣٣ ـ رينيه « قصة لشتوبريان » :

٣٤ ـ غاريبلدى :

٣٥ ـ مستقبل روسيا :

دراسات عنه فى الكتب والدوريات

١ ـ **عباس محمود العقاد :**
مقالة عن كتاب « صقر قريش »
الدستور ٩ من يناير ١٩٣٩ ·
وأعيد نشرها فى مقدمة كتاب صقر قريش ط · **الهلال** ·

٢ ـ **أبو النصر أحمد الحسينى الهندى :**
انتقاد لعلى أدهم ·
المقتطف يوليه ١٩٤١ ·

٣ ـ **ابراهيم عبد القادر المازنى :**
مقال عن كتاب « نظرات فى الحياة والمجتمع » ·
البلاغ ٢٧ من أغسطس ١٩٤٥ ·

٤ ـ **عباس محمود العقاد :**
مقالة عن كتاب « ألوان من أدب الغرب » ·
مجلة الرسالة ٩ من ديسمبر ١٩٤٧
وأعيد نشرها فى كتاب « آراء فى الآداب والفنون للعقاد ·

٥ ـ **طه حسين :**
مقال عن كتاب « ألوان من أدب الغرب » ·
الكاتب المصرى يناير ١٩٤٨ ·

٦ ـ **وديع فلسطين :**
مقال عن كتاب « على هامش الأدب والنقد » ·
المقتطف ديسمبر ١٩٤٨ ·

٧ ـ **الأهرام :**
مقال عن كتاب « على هامش الأدب والنقد » ·
بدون توقيع ·
١٠ يناير ١٩٤٩ ·

٨ _ **عباس محمود العقاد :**

نبى الوطنية فى الغرب ·

مقال عن كتاب « متزينى » ·

الأساس فى ٢٥ يوليه ١٩٥٢ ·

٩ _ **ســــيد قطب :**

فصل فى كتابه « كتب وشـــخصيات عن كتاب « بين الفلســـفة والأدب » ·

١٠ _ **عباس محمود العقاد :**

من حوادث الكلام _ على أدهم :

الأخبار فى ٩ من يناير ١٩٥٤ ·

وكتاب اليوميات الجزء الثانى ·

١١ _ **عباس محمود العقاد :**

مقدمة كتاب « مستقبل روسيا »

سلسلة الناقوس ·

١٢ _ **حبيب الزحولاى :**

فصل من كتاب « شيوخ الأدب الحديث » ·

١٣ _ **محمد خليفة التونسى :**

مقال عن كتاب « المعتمد بن عباد » ·

مجلة الكتاب العربى عدد ديسمبر ١٩٦٤ ·

١٤ _ **جمال الدين الرمادى :**

مقال عن كتاب « على هامش الأدب والنقد » ·

مجلة الكتاب العربى عدد يناير ١٩٦٥ ·

١٥ _ **أحمد حسين الطماوى :**

مقال عن كتاب « صقر قريش » ·

مجلة الكتاب العربى عدد يولية ١٩٦٦ ·

١٦ _ **أحمد حسين الطماوى :**

على أدهم العقلية التاريخية ·

مجلة الطالبة عدد أكتوبر ١٩٦٦ ·

۱۷ ـ **أحمد حسين الطماوى :**
مقال عن كتاب « صور تاريخية » ٠
مجلة قافلة الزيت عدد يناير ١٩٦٨ ٠

۱۸ ـ **نقولا يوسف :**
فصل فى كتابه « أعلام من الاسكندرية » ٠
الصادر عام ١٩٦٩ ٠

۱۹ ـ **ابراهيم مصطفى :**
على أدهم الأديب والباحث والمترجم ٠
الثقافة عدد يونيه ١٩٧٥ ٠

۲۰ ـ **د ٠ نعمات أحمد فؤاد :**
مقال يتضمن سيرة على أدهم ٠
مجلة الاذاعة ٦ من ديسمبر ١٩٧٥ ٠

۲۱ ـ **أحمد حسين الطماوى :**
على أدهم كاتب تراجم الأبطال ٠
مجلة الثقافة عدد اكتوبر ١٩٧٦ ٠

۲۲ ـ **أحمد حسين الطماوى :**
على أدهم سيرة ودراسة ٠
مجلة الثقافة عدد يونيه ١٩٧٧ ٠

۲۳ ـ **محمد نصـــر :**
رحلة ٥٠ عاما مع الأدب ٠
مجلة آخر ساعة عدد ٧ من سبتمبر ١٩٧٧ ٠

۲٤ ـ **رجاء النقاش :**
الكاتب والوسام ٠
مجلة المصور عدد ٦ من سبتمبر ١٩٧٧ ٠

۲٥ ـ **د ٠ عبد العزيز الدسوقى :**
على أدهم هذا الرائد العظيم ٠
مجلة الثقافة عدد أكتوبر ١٩٧٧ ٠

۲٦ ـ **محمد عبد الحليم أبو زيد :**
على أدهم ٠
مجلة الثقافة عدد نوفمبر ١٩٧٧ ٠

٢٧ ـ د · عبد العزيز الدسوقى :
الأعمال الكاملة لعلى أدهم ·
مجلة الثقافة عدد مارس ١٩٧٨ ·

٢٨ ـ د · محمد رجب البيومى :
على أدهم وشعراء العربية ·
مجلة الثقافة عدد يونيه ١٩٧٩ ·

٢٩ ـ الأخبار :
كلمة بدون توقيع ·
الأديب الذى فقدناه ·
١٠ من يناير ١٩٨١ ·

٣٠ ـ د · زكى نجيب محمود :
حديث أجراه مصـــطفى عبد الله مع زكى نجيب عن على أدهم بمناسبة رحيله · الأخبار ١٤ من يناير ١٩٨١ ·

٣١ ـ د · توفيق الطويل :
حوار مع توفيق الطويل أجراه مصطفى عبد الله بمناسبة وفاة على أدهم ـ الأخبار فى ١٤ من يناير ١٩٨١ ·

٣٢ ـ فؤاد كامل :
ورحل عملاق آخر ·
الأهرام ١٦ من يناير ١٩٨١ ·

٣٣ ـ احمد حسين الطماوى :
على أدهم ·
نشرت بتوقيع خاطىء « احمد الطحاوى » والصحيح احمد الطماوى
الأهرام ١٩ من يناير ١٩٨١ ·

٣٤ ـ احمد حسين الطماوى :
على أدهم وداعا يا أبى
الثقافة مارس ١٩٨١ ·

٣٥ ـ انيس منصور :
كلمة عن على أدهم فى عمود مواقف ·
الأهرام ٢٢ من يناير ١٩٨٢ ·

٣٦ ـ أحمد حسين الطماوى :

على أدهم وأبطال التاريخ .

مجلة الأديب عدد مارس ـ مايو ١٩٨٢ .

٣٧ ـ رجاء النقاش :

كيف ننقذ الثقافة العربية من هذا الطوفان .

عن دار نشر ســـرقت ترجمة على أدهم لمجموعة قصص صديق الشدة ـ الدوحة عدد مارس ١٩٨٢ .

٣٨ ـ فتحى الابيارى :

كلمة عن على أدهم فى ذكراه .

مجلة أكتوبر عدد ٣١ من يناير ١٩٨٢ .

٣٩ ـ أحمد حسين الطماوى :

سرقة أدبية بالنص .

كلمة يدور فيها الكلام عن على أدهم .

مجلة الأديب عدد يونيه ـ ديسمبر ١٩٨٢ .

٤٠ ـ أحمد حسين الطماوى :

على أدهم ناقدا أدبيا .

برنامج خاص

اذاعة البرنامج الثانى فى ١٤ من نوفمبر ١٩٨٩ .

٤١ ـ نبيل فرج :

حديث مع الكاتب المصرى على أدهم .

مجلة الكاتب عدد أغسطس ١٩٧٣ .

٤٢ ـ نبيل فرج :

على أدهم

المساء . فى ٧ سبتمبر ١٩٧٧ .

٤٣ ـ نبيل فرج :

على أدهم بين أحلام الفلاسفة وأخيلة الشعراء .

المساء فى ٢٢ من يناير ١٩٨١ .

المصـــادر

أولا : الكتب :

١ ـ أحمد أمين :
النقد الأدبى ٠

٢ ـ أحمد محمود صبحى
فلسفة التاريخ ٠

٣ ـ أرســـطو .
السياسة « ترجمة لطفى السيد » ٠

٤ ـ ادوار كار :
ماهو التاريخ « ترجمة ماهر الكيالى » ٠

٥ ـ السيد عبد العزيز سالم :
التاريخ والمؤرخون العرب ٠

٦ ـ د ٠ أميرة حلمى مطر :
فى فلسفة السياسة ٠

٧ ـ عباس محمود العقاد :
هتلر فى الميزان ٠

٨ ـ عباس محمود العقاد :
آراء فى الآداب والفنون ٠

٩ ـ عباس محمود العقاد .
العبقـــريات ٠

١٠ ـ عبد الرحمن صدقى :
أبو نواس ٠ قصة حياته فى جده وهزله ٠

١١ ـ د ٠ فايز صالح أبو جابر :
الفكر السياسى الحديث ٠

١٢ ـ كازلونى وفيللو :
النقد الأدبى « ترجمة كيتى سالم » ٠

١٣ ـ **مكارم الغمرى :**
الرواية الروسية فى القرن التاسع عشر « عالم المعرفة » .

١٤ ـ **مولوين ميرشنت :**
الكوميديا والتراجيديا « ترجمة على أحمد سالم » « **عالم المعرفة** » .

١٥ ـ كتب أخرى **وردت اسماؤها فى سياق الحديث** .

١٦ ـ علاوة على **كل كتب** على أدهم .

ثانيا : الدوريات :

١٧ ـ **البيان « للبرقوقى » :**
الاعداد الصادرة منذ عام ١٩١٩ .

١٨ ـ **تراث الانسانية :**
المجلد الأول والثالث والخامس .

١٩ ـ الأخبار :
٩ يناير ١٩٥٤ .

٢٠ ـ **الرابطة الاسلامية :**
عدد ٢٦ مايو ١٩٦٣ يونيه ١٩٦٢ .

٢١ ـ **الرجـــــاء :**
أعداد سنة ١٩٢٢ .

٢٢ ـ **قافلة الزيت :**
أعداد سبتمبر ١٩٦٦ ، اكتوبر ١٩٧٠ ، **مارس ١٩٧٢** .

٢٣ ـ **قضـــايا عــــربية :**
مايو ١٩٧٥ .

٢٤ ـ **الكتاب العربى :**
أعداد ديسمبر ١٩٦٤ ، **ابريل ١٩٦٥ ، يوليه ١٩٦٥** .

٢٥ ـ **الاذاعة :**
عدد ١٩٦٥/١٢/٦ .

٢٦ ـ **الأساس :**
١٩٥٢/٧/٢٥ .

٢٧ ـ العـــــربى :

أعداد يناير ١٩٦٦ ، سبتمبر ١٩٦٩ ، يناير ١٩٧٥ ، ابريل ١٩٧٥ .

٢٨ ـ المجـــــلة :

عدد يوليه ١٩٥٨ ، فبراير ١٩٥٩ .

٢٩ ـ الهلال :

اعداد ١٥ مايو ١٨٩٧ ، أول يونيه ١٨٩٧ ، ابريل ١٩٦٧ .

٣٠ ـ الدوريات التى تناولت على أدهم بالبحث والدراسة والواردة فى النشرة الببليوجرافية .

كتب المؤلف

- **الديوان المجهول لخليل مطران**

جمع وتحقيق ودراسة

صدر عن دار الفرجانى عام ١٩٨٥ .

- **ماهنالك ـ من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد**

تحقيق ـ ودراسة مطولة .

صدر عن المركز العربى للاعلام والنشر عام ١٩٨٥ .

- **صبرى السربونى :**

سيرة تاريخية وصورة حياة .

صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٦

- **فصول من الصحافة الأدبية :**

صدر عن دار الفرجانى عام ١٩٨٩

تحت الطبع :

- ليلة باسمة فى حياة مى
- قبس من وحى التراث

الفهـــرس

قالوا عن على أدهم ٥
كلمة الابتداء ٩
القسم الأول : ترجمته
ولادته ١٤
نشـــأته ١٥
ثقافته وكتاباته ١٦
طباعه ومزاجه ٢١
ذكرياتى معه ٢٣
وفــــــاته ٢٧
القسم الثانى : أدب ونقد
١ ـ النقد الأدبى بين التأثرية والموضوعية ٣١
٢ ـ تقدير النقد الأوروبى ٤٦
٣ ـ موقفه من الفنون ٥٣
٤ ـ خصـــائص أســـلوبه ٦٢
القسم الثالث : التاريخ
١ ـ فى فلسفة التاريخ ٦٩
٢ ـ الكتابة التاريخية وتطورها ٧٩
٣ ـ العالمية والقومية فى الدراسات التاريخية ٨٦
٤ ـ منهجه فى كتابة التراجم ٩٠
٥ ـ نظراته فى أبطال التاريخ ١٠٠
٦ ـ الفكر الســـياسى ١٠٨
نشرة بيليوجرافية ١١٧
١ ـ مؤلفاته ١١٩
٢ ـ دراسات عنه فى الكتب والدوريات ١٢٢
المصـــــادر ١٢٧

رقم الايداع ٣٠٣٥/١٩٩٠

I.S.B.N. 977 — 01 — 2440 الترقيم الدولى

الهيئة المصرية العامة للكتاب